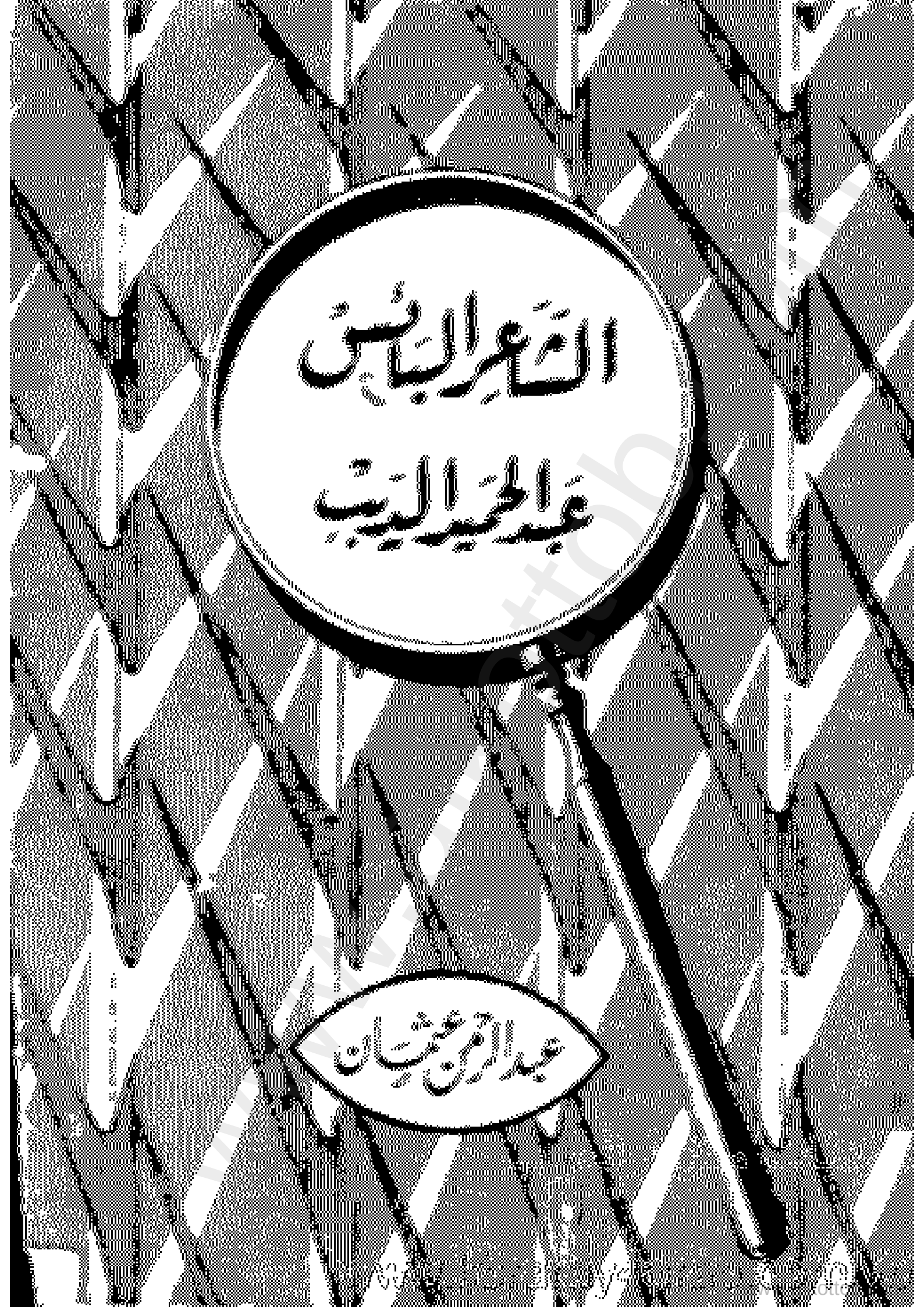

الشاعر البائس

عبد الحميد الديب

عبد الرحمن عثمان

www.kotobarabia.com

منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

www.alkottob.com

www.library4arab.com/vb

www.alkottob.com

الشاعر البائس

عبد الحميد الديب

بقلم

عبد الرحمن عثمان

مكتبة دار العروبة

٢٢ شارع الجمهورية القاهرة

www.alkottob.com

www.library4arab.com/vb

مطبعة المدنى
المؤسسة السعودية بمصر
ش حسنى الطويل بالسكاكيني ت ٤٠٨٥١

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

www.libraray4arab.com/vb

www.alkottob.com

[عبد الحميد الديب كما تخيله ريشة الرسام الكبير
عبد السميع مشاركة فى إحياء ذكراه لأول مرة]

بين النجوم أُناسٌ قد رفعتهمُ ... إلى السماء فسدّوا بابَ أرزاقِ

وكنتُ نُوحَ سَفِينٍ أُرسلتْ حَرَمًا ... لِلعَالَمِينَ ، فجازونى بإغراقِ !!

« الديب »

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

www.alkottob.com

www.library4arab.com/vb

www.alkottob.com

عبد الحميد الديب

بقلم أستاذنا الكبير

أحمد حسن الزيات

كان الشاعر عبد الحميد الديب غفر الله له نمطاً وحده فى شعراء العصر ، كان ظهوره رَجْعةً إلى نوع انقرض من الشعراء الهجائين المستهترين المُكدِين الذين لم تُهيئهم طبائعهم للعمل الكاسب فأخلدوا إلى التبطُّل وحملوا عجزهم وعوزهم على لُؤم الناس وظلم القدر ، من أمثال أبى الشَّمَقْمَق الذى يقول :

إنَّ العيال تركتهم بالمصر خبزهم الفَتَارَهْ
وشرابهم بول الحمار مزاجه بول الحماره

ويقول :

ولقد أهزلت حتى محت الشمس خيالى
ولقد أفلستُ حتى حَلَّ أكلى لعيالى
من رأى شيئا مُحالاً فأنا عين المحال

وأبى فرعون الذى يقول :

وَصِبْيَةٍ مثل فراخ الذَّرِّ سُود الوجوه كسواد القِدْرِ

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

عاد الشتاء وهمْ بِشرّ بغير قُمْص وبغير أُزْرِ
حتى إذا لاح عمود الفجر وجاء فى الصبح غدوتُ أسرى
وبعضهم ملتصق بصدرى وبعضهم مُنْحجِرٌ بحجرى
أسبقهم إلى أصول الجُدْر هـذا جميع قصتى وأمرى
أنا أبو الفقر وأمّ الفقر

وهـؤلاء المفاليك المُجّان الذين جعلوا الشعر وسيلة إلى العيش بالهجاء الفاحش ، والمدح المكذوب ، والشكوى المستمرّة ، كانوا طَبعيين فى المجتمع العربى القديم الذى كان يفهم الشعر على هذا النحو . فلما ذهبت بقايا هذا النوع بذهاب خليل نظير ، و إمام العبد ، وأحمد فؤاد وأضرابهم ، وأصبح للشعر فى الأدب الحديث مفهوم آخر وأغراض أُخَر ، كان شعر الديب شذوذا فى نسق مُطّرِد ، ونشوزا فى نغم مؤتلف ، ولـكنه كان ككل شاذ و كل غريب مُتّجه الأنظار ومُضْطَرَب الألسن .

ذلك إلى أنه كان يجرى على أسـلوب الحطيئة وابن الرومى فى قوة الهجاء ، وعلى أسلوب ابن حجاج وابن سُكّرة فى فحش المجون ، وكان يختلف عن هؤلاء جميعا بألوان من الصور والتشابيه انتزعها من بيئته ، ونقلها عن واقعه .

نشأ الديب فى أسرته الصغـيرة الفقيرة كالنَّبْتَةِ البرية فى الرَّمْلَةِ

www.alkottob.com

الجافة ، لا يُمسكها أصل راسخ ، ولا يسندها جذع قوى ، ثم عاشت على عُلالَةِ الجَدْبِ وبُلالَةِ النَّدى فاخضرَّت من غير نضارة ، وأشْوَكَتْ من غير زهر ، وظلت فى العراء تقاسى السَّمُوم والقَيْظ ، وتكابد الشُّغُوب والظمأ ، حتى اقتلعتها الريح وألقت بها هشيماً فى أُخدود من أخاديد الأرض .

قَسَت الطبيعة على الديب فلم تُزَوِّده بما تزوِّد به الحىّ الكامل العامل بالكفاية الكافية لابتغاء العيش السائغ الهنيء ، فكان رغبةً جامحة لا تحققها قدرة ، وشهوةً عَارِمَة لا تضبطها إرادة ، ورأى نِعَم الله تفيض مِن حوله على مَن يراهم مثله أو دونه ، وليس له منها مَوْرِد ولا فضل ، فأطال لسانه الحقد ، ورفع عَقِيرته الجوع ، وألهب شعوره الألم ، وأمضّ نفسه الحرمان ، فصدر عنه شعره كما يصدر الأنين عن المجروح ، والصراخ عن المظلوم ، والزمجرة عن الساخط ، ولم يفهم الشعر على أنه فن يَلَذُّ أو رسالة تُؤَدَّى ، وإنما فهمه على أنه سلاح يحمى ، أو شِصٌّ يصيد . وكان منشأ ذلك الفهم القديم للشعر الحديث أنه كان كأ كثر الشعراء القدماء لم يعرف الحياة على أنها جِدٌّ وكدّ ، وانما عرفها على أنها لهوٌ وصعلكة : ولذلك قضى حياته البوهيميَّة البهيمية شهوان لا ينام إلاّ على المسكر والمخدِّر ، ولا يتيقظ إلاّ على الجوع والظمأ .

ولعل حَظَّ العاثر المتخلّف لم ينهض به فى حياته وبعد مماته إلاّ مرة

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

واحدة ، تلك المرة هى التى أتاح له فيها قلم صديقه الدكتور عبد الرحمن عثمان ، فَخَلَّدَ ذكره بهذا الكتاب القيِّم ، ذلك الكتاب الذى لم يظفر بمثله شوق ولا حافظ .

رسم الكاتب فيه صورة الديب فأقام هيكلها من شعره ، ثم جعل فيها اللّون والظلّ والبُرُوز مما عرف من سيرته ، واكْتَنَه من سريرته ، وكشف من أموره ؛ فجاءت الصورة واضحة الملامح ، بَيِّنة الحدود ، واقعية الدلالة ، يترجم عنها بيان مُشرق ، ويدلل عليها منطق صائب . فاذا تأملتَ هذه الصورة أو قرأت هذا الكتاب بَدَا لك الديب عُريان على الفطرة بِعْجَرِهِ وَبُجَرِه ، بِنابِهِ وَقَرَمِه ، بِعْوائه وجَوَلاَنه ، بِسِرِّه وعلنه . وذلك غاية ما ترجوه من كاتب يكتب للتاريخ ، ومن كتاب يترجم لشاعر .

أحمد حسن الزيات

www.alkottob.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ولد الشاعر عام ١٨٩٨ بقرية « كمشيش » وهى قرية متواضعة من قرى المنوفية تقع قريبا من مركز « البتانون » ، ووالده هو « السيد الديب » جزار القرية فى مواسمها وأعيادها ، وكانت القرية المصرية إلى عهد قريب قلما تأكل اللحم إلا فى المواسم والأعياد .

ولما شب الشاعر عن الطوق أسلمه أبوه إلى فقيه القرية حبّا منه فى القرآن الكريم ، وأملا له فى أن يرى ابنه وهو فى طفولته حافظا لما قد أحب ، ومستوعبا للكتاب الذى جمع بين خيرى الدنيا والآخرة ، وربما كان من أمانيه إلى جانب ذلك أن يمتد به العمر فيرى صبيه الفطن وقد أشرفت سنه على الثلاثين شيخا مهيبا يستند إلى عمود من أعمدة الأزهر الشريف ، تذهب عمامته يمينا ، وتجىء شمالا . . وحوله هالات الطلاب والمريدين . . قد سمرت أعينهم فى مقوّل الشيخ عبد الحميد . . وكأنما لا حديث فى مسامعهم إلا حديثه . . ! ! ولا قضاء يرون واقعا فى الكون إلا ما سيؤكد « فضيلته » أو يتوقع . . ! ! .

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

وبهذا الشعور الدينى البرىء ، أو على وجه الدقة بما كان يسمح به الكسب اليسير ، شاء الوالد أن يهيىء لابنه الحبيب وسيلة مُثلى تكفل له فى مستقبله العيش الهنيء ، أو لعلها تجعل منه « موظفا » يشق حياته فى غير نصب أو عناء .

وسواء أراد السيد الديب أن يكون ابنه عبد الحميد شيخا تُلتمس بركاته ، أم أراد له فى الحياة رزقاً يأتيه من بين يديه ومن خلفه ، فإن الذى لا شك فيه أن نجله العبقرى قد خيب ظنه فى أن يكون هذا أو ذاك ، لأنه صار كما أرادت له فطرته وشاءت له المقادير . . أو لعله صار كما أراد هو لنفسه إنساناً فى صورة شيطان ، وصاحب فاقة ذليلة قَلّما عُرِفت لإنسان .

وما ظنك بمن ولد وقلبه مشبوب بالحزن ، نزاع إلى الألم والأسى ..

* * *

والتعريف بفن الشاعر عبد الحميد الديب ، إنما هو فى الواقع دراسة عميقة لحياته وعرض واضح لشخصيته ، فلقد نبع فنه من أغوار نفسه ، وتفجرت مواهبه من أعماق وجدانه ، فما عرفته فى شعره إلا صادراً عن أحاسيسه الخاصة به ، وما ألفيته حين ينظم القريض يتلفت إلى آفاق غير آفاقه .

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

وهو بهذا المعنى قدم لنا من فنه صورة كاملة لحياته الأليمة ، فلم يحاول أن يكتم منها شيئا قد يسىء إليه ، ولم يستر فيه صورة قد تُحْمِلُهُ فى تقدير المجتمع ، أو ربما يصل إليه منها النقد والتجريح . . ! ، ولهذا جاء شعره القوى صدقا لا كذب فيه ، وحقيقةً لا تنقصها الشجاعة حينا ، ولا تفتقر إلى الصراحة المرة أحيانا . . ! ! .

وهذا هو الفن الأصيل الذى يعتمد على الصدق فى ترجمة المشاعر ، والذى يرتكز على الشجاعة فى الجهر بخفىّ الأحاسيس .

والديب من هذا الجانب يعتبر من شعراء المذهب « الرومانتيكى » فإنه لم يقلد شاعراً إلا فى مطلع حياته حينما كان يشدو بالشعر وهو طالب حَدَثٌ فى الأزهر ثم فى دار العلوم .

وهذا الذى أقدم عن الصديق البائس إنما هى دراسة عن حياته ، وهى فى الوقت نفسه عرض لفنه الديبى الفريد ، وقد نشرتُ جانبا منها فى العام الماضى فى صحيفة الشعب بعنوان « عواء الذئب » .

* * *

ويطيب لى فى هذا المقام أن أشكر للصحيفة الغراء ترحيبها بإحياء ذكرى هذا الذى عاش مغموراً ، ومات منسياً ، فلقد حرصَتْ على نشر أخباره فى صفحتها الأدبية وزاد فى روعة الحديث عن الديب

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

ما كانت تبـــدعه ريشة الصديق الرسام الأستاذ عبد السميع عبد الله ، حتى لقد ظننت صادقًا أن التعبير بالريشة عن حياة الشاعر كان أبلغ مما كنت أعبر عنه بالقلم .

* * *

وللديب معى قصة لا تخلو من طرافة . . ، فقد هممت غير مرة أن أكتب عنه إثر وفاته حتى أمتع القراء بفيض من شعره النابض بالقوة والحياة ، ولـكنى كنت فى كل محاولة أحاولها أصاب بما يشبه الـكارثة . . ! ! ، ولم أفطن لذلك أول الأمر ، إذ ربما يكون للمصادفه دورها فى اقتران ما أصابنى بما هممت ، فمضيت أحاول من جديد . . ، فإذا بالمحاولة تمخض كذلك عن محنة أدركتنى لا تزال آثارها ماثلة فى نفسى حتى الآن . . ! ! .

وهكذا وقر فى ذهنى بعد تجربتين أخريين . . أن سوء الطالع الذى مُنِىَ به الديب فى حياته لا يزال حيًا لم يمت معه . . ! ! ، فهو يلازم شعره ، ويقف دون نشره حتى يتلاشى الصدى كما تتلاشى الصوت ، لا تسمعه أذن ، ولا يحفل به أحد . ولهذا فقد آثرت السلامة ، ولويت عن غايته اليراع .

ولـكن الذين يعرفون صلتى بالديب لم يكفوا عن ملاحقتى فى

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

كل لقاء بشتى الأسئلة التى تدور حول شعره ، وكنت كلما سألونى أن أكتب عمّن عاش بائسًا ، ومات منسيًا أنشدهم قول القائل :

ولو كان لى رأسان ، أتلفت واحدا
ولكنه رأسٌ إذا راح أعقما

ثم تشاء الأقدار أن تلقى عن كاهلى هذا العبء وما يتصل به ، بظعنى إلى مكة المكرمة للتدريس هناك ، ثم بسفرى إلى باريس لأقضى فيهما عشرة أعوام كاملة عدت بعدها إلى أرض الوطن فى مستهل عام ١٩٥٦ .

وكم تألمت حقًا حين علمت أن أدباء كثيرين قد تنادوْا ـ غير مرة بنشر ديوان الديب ، وأنهم على صدق عزائمهم وموصول دأبهم كانوا فى كل مرة يُصابون بما يشبه الإخفاق ، لأن ما أتيح لهم من تراثه الأدبى كان من الضآلة بحيث لا يَنْقَعُ منهم غُلّة ، ولا يحقق لهم غرضًا . .

ولكنى ذهلت حين أنهى إلىّ الزميل الأستاذ عبد الرحيم فوده أن جميع هؤلاء الأدباء قد خرجوا من التجربة الديبية سالمين . . ! ، وأنه لم يصب أحد منهم بمثل ما قد أُصبتُ به من قبل ، وأضاف الصديق الفاضل مؤكدًا أننى أظلم الديب حين أعزو إلى حظه المنكود

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

كل ما لحق بى من أحداث . . ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ قُلْ لن يُصِيبَنَا إلاّ ما كتب اللهُ لنا ﴾ ، ومن ثم أهاب بى أن أجمع أطراف شجاعتى لأكتب ـ مستعيذا بالله ـ عن عبد الحميد الديب .

وها أنذا أعود للتجربة الدببية . . ولا أكتم القراء أننى أُقْدِم على هذا الأمر وفى القلب ما فيه من خشية ووجل ، وتَهَيُّبٍ واضطراب ؛

ذلك أننى من أعرف الناس بعزمات الشؤم الديبى ، وهى عزمات كما يقولون لامنتهى لكبارها . . ! ، وأشهد أنى ما رأيتها مرة تخطىء الهدف الذى ترومِ .

وقد يكون من الخير أننى خدعت نفسى حتى تثبت فلا تضطرب ، حين زعمت لها أنى فى الحديث عن الشاعر المشئوم إنما أُنَسِّقُ من فنه الرفيع طاقة من الورود البرية لأقدمها إلى أدبنا الحديث ، لأنه فى حاجة إلى هذا النوع الذى لمْ يَكَدْ يَرَ مِثْله من قبل ، وإنما كانت هذه الورود التى أزفها إلى الأدب برية غير مألوفة تقريباً لأنها من نوع جديد غير ما عرف من أنواعها التى نشمها صباح ، مساء ، وبحسبها غرابة ، أن يكون الديب قد رَوَّاها بدموعه الغزار . . فَقَوِىَ عُودُهَا وَاسْتَصْلَب . . ، وأن الشاعر الشريد قد أشاع فى وُرَيْقَاتِها لوناً أحمر صارخا .. قد استمده مما ينزف من جراحه التى كانت لا تلتئم أبداً ..!!.

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

وهذه الطاقة على مابها من أشواك ، وعلى ما نجد بها من بداوة فوّاحة الشذى ، عطرة الأنفاس .

وقد مضيت فى التعريف بعبد الحميد الديب على نسق اعتقدت أنه أوفى بالغرض الذى أريد ، فقد أرّخْتُ له مستهدياً فى ذلك بما مرّ به من أحداث كان لها الأثر البالغ فى حياته وفنه ، ولم أشأ أن أسلك فى ذلك سبيلا أخرى إن هى استقامت لى مرة فقد تميل بى عن الجادة مرات .

* * *

هذا ، ولن أستطيع أن أوافق الأصدقاء فأزعم معهم أن مالدى من شعر الديب هو كل ما كان له من تراث فنى ذلك أننى لم أكن راوية متفرغاً لشعره وإنما كان شأنى معه أن أستنشده حين كنت ألقاه ماعسى أن يكون قد استحدث من قريض ، فإذا أنشدنى ما أستجيد — وكثيراً ما كان يفعل — أبادر بكتابته إن خشيت نسيانه ، أو أحفظه إن كان مما يخف وقعه وتقصر أبياته .

والذى أستطيع أن أعد به محبى فن الديب أننى سأقدم إليهم قريباً الجزء الأول من ديوانه إحياء لذكرى الشاعر الممتحن ، وامتناعاً لِطُلاّب الأدب وعشاق الفكاهة أو الأحزان .

وأعترف أن ذلك سيقتضينى كثيراً من التحقيق ، ومزيداً من

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

البحث الشاق المرير ، وعذرى فى هذا أن الشاعر نفسه ما كان يعرف الاستقرار ، فقد كان فى عامّة وقته يقرض القصيدة الرائعة فما يمضى عليه شهر أو شهران حتى يكون قد نسيها أو امّحتْ من ذاكرته . ! ! وكنتُ إذا ذكرته ببيت منها أو أبيات — اضطرب كيانه ، واغرورقت عيناه ، وربما أردف قائلا : « وهكذا أيها الصديق يموت شعرى وأناحى ، فكيف به إذا ماقضَيْت . . !! » ، فكنت حينذاك ألحاه فى رفق ، وأحمله وحده تبعة هذا الإهمال الذريع .

وإنى أشعر الآن أننى كنت أظلمه فى هذا بعض الشىء ، لأنه — رحمه الله — لم يعرف طوال حياته ذلك الاستقرار الذى يُحبِّبُ إليه النظام ، بل إنه لم يشعر فى حياته حتى بذلك الأمن الذى يشعر به كثير من القتلة واللصوص . . !! فإذا أتيحت له حجرة رخيصة فى حى الأزهر ، فما كان يسكنها إلا لتقلق به !! ، وما كان يعمرها حتى تستوحشَ منه ، فيفارقها على كره منه ، وتلفظه الحجرة — فى رضًا — لأنه بما يرتدى من أسمال كان بها كل الأثاث والرياش ! ! ، فأنّى يحتفظ المسكين بشعره إن عز عليه المأوى وحرم الدعة والاستقرار ؟! ، ولم يكن له من منزل أمين يستودعه شعره — وما كان أكثره — إلا صحيفة عبث بها البلى لكثرة ما كان يحملها تحت إبطه ، فهو يطوف بها صباح مساء ، ويذرع بها القاهرة جيئة وذهوبا ، وبها

www.alkottob.com

قصاصات من الورق فيها خليط عجيب من شعره ..!!، فمن قصائد مدح لشيخ مقدم أو نائب مجهول، إلى أوابدَ من روحه القوى يلتقى فيها السحر بالجلال .

وبهذا اللون الأخير من شعر الديب سأقدمه للقراء ليتعرّفوا مواطن العبقرية فيه، ولتمتلئ عيونهم بإشعاع شخصيته التى حجبها عنهم البؤس أمداً طويلا .. ، فلقد مكثوا خمسة عشر عاماً ماتناشدوا خِلالها إلا وَسَقَطًا من شعره .. أو بذيئًا من عبثه .. حتى وقر فى أوهام طائفة من الأدباء أنّ الديب شاعر متسول خليع ..!!

وأُحب أن يعلموا أن الديب كان شاعراً شعبياً، يقارع الظلم لأنه مظلوم ...، ويستريب فى الحاكمين العُتاة لأنهم يحتفلون بذوى المواهب الفِجّة، وكان يفعل ذلك بخفيض من صوته لأنه لاحول له ولا قوة .. ولكنه كان على كل حال يكافح بأسلوبه وطريقته .. لأنه كان جائعاً .. وربما كافح أيضاً من أجل الجِياع المستضعفين .

المؤلف

مصر الجديدة ٣١ ديسمبر سنة ١٩٥٨

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

www.alkottob.com

www.library4arab.com/vb

الفصل الأول

نشأته وأثرها في شخصيته وفنه

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

شب الحزن مع الديب ودرج معه في طفولته ، فهو إنْ سمع طيراً يغرد ، لايستثيره من تغـريده إلا رنة الشجي وعاصف الحنين . وإن أصغى إلى حفيف الأغصان فإنه لايستطيب منه إلا رجع الشكوى وتهامس الأشجان ، ذلك أن أذنيه وهو طفل لم ينسكب فيهما أول ما انسكب إلا نواح المفجوعين ونشيج الثواكل وأن عينيه قد تفتحتا أول ماتفتحتا على الدموع المسكوبة والآلام المبرحة . فلقد نشأ في أسرة تخطف الموت كثيراً من أفرادها ، وَألِفَتِ المنيَّةُ أنْ تزورها حيناً بعد حين ، ولست معتمداً في هذا على الفرض أو الخيال ، ولا جانحا فيما ذهبت إليه إلى نوع من الحـدس أو ضرب من الظن ، وإنما هو تعبير صـادق عما أفضى إليّ به الديب نفسه حينما كان يطيب له أن يحدثني عن طفولته الحزينة وماضيه الحبيب .. وما كان يطيب له مثل هذا اللون من الحديث إلا إذا كنا منفردين وفي نجوة عن الآذان المتطفلة ، فإذا انتحينا ركنا في المقهى بدأ ينفض إليّ نفسه في طُمَأنينَةٍ وراحة ، وَطفِق يختصني بكثير مما كان يَحْجُبه عن الناس .. ولست أدرى لم كان — رحمه الله — يؤثرني بكل هذا ، أهي الثقة وحدها ، أم أنه كان يحدس بالغيب أو يتكشف له المستقبل فيرى أنني سأتولى الحديث عنه إلى التاريخ عامة ، وإلى عشاق شعره خاصة ، وسواء أكان

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

هذا الأحد الأمرين أو لكليهما جميعاً فهو المحمود وحده على كل حال .

* * *

إن « جهاز الاستقبال » فى طبيعة الشاعر وهو طفل ، لم يكن مهيأ لأن « يلتقط » إلا الصُّوَر الحزينة الهالعة التى تُعَبِّر عن صادق الألم ، وتُبْرِز فى وضوح معالم الأسى والفجيعة ، وما كان صالحاً بطبيعة تكوينه « لاختزان » الصور الباسمة التى يشع منها الإشراق ويتراءى فى جوانبها الجمال الخلاب ، ذلك لأن طبيعة الفنان كانت قد ازدحمت بالصور القاتمة ، وأخذت فيها مكانها الذى لا يزاحم . فإذا وَفَدَتْ إلى نفس الشاعر صور جميلة من آفاق الحياة وفدت متأخرة لا تجد لها موضعاً منه لتنطبع عليه وتتجمع انعكاساتها فيه .

وحسبى فى هذا المقام أن أروى عن الديب هذا الحادث الذى جاء مبكراً فى حياته وطالعه بالقرية فى طفولته الأليمة .

كانت سنه حينذاك لم تتجاوز الخامسة حين مات جاره الأعرابى « سالم » ، وسالم هذا فتى غضُّ الشباب ، قوى الأسر ، يملأ العين جمالا والقلب جلالا ، فكانت الأنظار تتعلق به ، والإعجاب يحوطه من كل جانب ، يغدو فى القرية ويروح ، ممتطيا جواده القَارِه فى كثير من العجب والخيلاء .. وكان الشاعر وهو فى سنه تلك يرى فيه « بطله »

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

الذى ينشده ، وكثيراً مايتمثل له فى أحلامه الجميلة حين يُسْلِم لِلـكَرَى عينيه العميقتين المتألقتين فوق فراشه المتواضع الخشن .. ؛ والطفولة لها مُثلها العليا التى تتعلق بهـا وتنزلها فى القلب الطرى أكرم منزل وأحبه ، وهذه المُثُل على سذاجتها تظهر فى حياة الطفل وكأنها شىء له قداسته وجلاله ، وهكذا كانت شخصية الأعرابى بالنسبة للفتى الموهوب .

وبموت هذا الأعرابى أصيب الديب بأول كارثة فى حياته ، وذَبُل فى نفسه أمل الطفولة الجميل ، وقف الديب على باب الخباء ، يرقب بمقلتين زائغتين الأعرابيات وهن يفدن من القرى المجاورة ليشاركن أمَّ سالم حزنها ، ويخففن عنها مصابها ، وما هى إلا دقائق حتى يُقِمْنَ على الراحل مَناحةً مشهودة . شُقّتْ فيها الجيوب ولطمت الخدود ، وأخذ النسوة يرَدّدْنَ خلف النائحة ما كانت تندب به ، مما ظل الديب ــ رحمه الله ــ يذكره ويردده حتى قضى أجله ! ! ولست أذكر من رثاء النائحة إلا مقطعاً واحداً كانت المقاطع المختلفة تختتم به ، ألا وهو : « ياقَعُود مُوَلَّد يَابْنى ياسالم » .

وكأنَّ هذا النغم الحزين قد فَجَّر فى قلب الطفل ينابيع ثَرَّة من الأسى والحزن ، وَفَتَّحَ فى نفسه آلاماً كانت تلفها « براعم » نابتة طرية لم تكن قد تفتحت فيها من قبل ، فانطلق بدور مع الأعرابيات

www.alkottob.com

فى الحلقة الباكية ، ويصك وجهه براحتيه الصغيرتين كما كُنَّ يفعلن ، يذرف الدمع فى أسى ولوعة ناديا بطله الذى قضى ومودعاً أمنيته التى اختطفها الموت ، وكلما رَدّدَ معهنّ ذلك النغم الحزين ، غشيته غاشية من الأسى واستبد به نوع من الألم العميق ، ولا يزال الطفل كذلك حتى تجذبه أمه من الحلقة قَسْراً وتدفعه أمامها إلى بيته دفعاً ، فما إن يراه أبوه على تلك الحالة حتى يَرِقّ له ويحنو عليه ، وَيُكْبِر فيه هذا الوفاء الفريد الذى غيرته فى الشاعر تصاريف الأيام فيما بعد !! .

وتمر بعد الوفاة أيام وأيام والطفل لا يَرقأ له دمع ، ولا يفتر لسانه عن ترديد النَّغَمِ الذى نقش على ذاكرته .. فإذا جلس إلى الطعام مع إخوته ووالديه انفجر باكياً ، ثم مال يميناً وانعطف شمالا يصيح فى صوت متهدج : « ياقعود مولد يابنى ياسالم » ، وعندئذ يزجره أبوه فى عنف وصلابة ، ولكن هيهات .. هيهات ، فقد حفر اللحن اللعين على شغاف قلبه ، وانصب فى تجاويف روحه نغمة الباكى الجزوع .

* * *

إن عينيه لم تتفتحا فى قريته إلا على بؤس الأسرة وشقاء العشيرة ، وإن أحاسيسه المُرْهَفَة لم تختزن فى صباه إلا صوراً دامعة من الحزن والشقاء ، وحينما شب عن الطوق دفعوا به إلى الأزهر

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

ليجد حرمانا آخر أمضّ مما صادف في قريته ، ولقد كان يدرج بها قانعاً بما يصيبه مما يرى مثله لأقرانه ولداته ، أما حين ينتقل إلى الإسكندرية ثم إلى القاهرة فالأمر فيهما جد مختلف ، ومن هنا تبدلت فيه فِطْرته فبدأت معها شقوته .

إنه سجل هذا المعنى وهو في القاهرة بقوله :

مَرّوا على الدار يوم العيد ضِيفانا ... يرجون منها نداها كالذى كانا

والدار حين رأتهم مقبلين لها ... تعوّرت في البكا أهلاً وبنيانا

يامعشر الديب وافى كل مغترب ... إلاّ غريبكم في مصر ما بانا

ذبحتم الشاة قربانا لعيدكم ... والدهر قدّمني للبؤس قربانا

ثم يعرض لفاقة أسرته فيها إذ يقول :

ليت العباد كلابٌ إنّ كلبتنا ... لمّا تزل لحفاظ الود عنوانا

تحمّلت قِسْطَها في البؤس صابرة ... لم تشْكُ جوعا ولم تستنجد إنسانا

لم يترك الدهر إلا شيخة عكفوا ... من فاجعات الردى صمّا وعميانا

من كان يحسدني فليرتقب سحرا ... أنّي على الجوع أطوى الأرض حيرانا

ليلتمسني لدى الخمّار يحبسني ... في «القسم» آنا وفي حانوته آنا

* * *

إن محنة الشاعر قد بدأت يوم أن آمن بالشهوات واتخذها مستردا ومذهبا ، فهو لم يمض فيها برفق كما يمضى الآخرون ، ولم يتناولها فى قصد واعتدال ، وإنما جعل منها متنفساً لما لقى من كبت ، وتعويضاً عما صادف فى ماضيه من حرمان ، ومن ثم اعتنقها كغاية كبرى تجند لها روحه وجسده جميعا .

* * *

كان الديب يحيا فى جميع أدوار حياته حياة شعبية خالصة ومصرية صميمة ، فلقد استهل هذه الحياة وهو فى مطلع العقد الثانى من عمره حينما دفع به والده الشيخ السيد الديب إلى التعليم فى الأزهر ، وغنى عن البيان أن نشير إلى أن الأزهر يتألف دائما أبناء الطبقة الكادحة من المصريين ممن لا تبتسم لهم الدنيا . ولا تتطامن إليهم وجوه اليسر والترف ، وقلما نجد فتى من طلابه قد نشأ فى النعيم ثم سلكت به أسرته الموسرة هذا المسلك من التعليم ، اللهم إلا إذا كانوا قد أخذوا أنفسهم أخذا قويا بتعاليم الدين ، فأحبوا لأولادهم هذا اليقين الذى يجدون فى صدورهم من دراسة الإسلام والوقوف على تعاليمه ، فشذوا بهم عن عرف أهل النعيم واختاروا لهم الأزهر هاديا ومثقفا .

والأزهر يستقبل من هؤلاء الريفيين حشدا كل عام ، وحينما يجلس هذا الحشد المتنافر إلى شيوخهم تتقارب طباعهم شيئا فشيئا ،

www.alkottob.com
www.liberary4arab.com/vb

وتنتظم مشاعرهم أخوّة دينية أزهرية تقضى سريعاً على ما عسى أن يكون من تفاوت بين هاتيك الطباع التى صنعها فيهم « جنوب الوادى » حادّةً قوية كأنها النيل فى انحداره وعنفه هناك ، وطبعها شماله فيهم سهلةً هادئة فى « أحضان الدلتا » حيث ينساب النيل هادئاً فى غير عنف أو هدير .

استقبل الأزهر الشاعر كما استقبل هؤلاء الريفيين فى كثير من الحدب والحنو ، ومسح بيده الرحيمة على فاقة هؤلاء جميعاً بما يسر لهم من « خبز يومى » تحول ـ فيما بعد ـ إلى قروش كانت تعمل فى النفوس عمل السحر . . ! ! ، لأنها ـ كما يقول علماء الاقتصاد ـ تُوَازِن ما بين الدخل والمنصرف أو تكاد . . !! .

وليس هذا عيباً يُضَارّ به الأزهريون . . فلقد كانت الرأسمالية تَمُنُّ لا عَلَى الأزهر وحده وإنما على الشعب كله بأنها أشبعتنا بالخبيث من الرزق ، واستغفر الله أن أسميه « رزقاً » ، فإنه سبحانه أعدل من أن يرزق قوماً كادحين مثل هذا الخبث الذى تمرض به عزمات ، وإنْ عَصَمَ من الجوع نفوساً . . ! ! .

والديب كان واحداً ممن قعد بهم المال والجاه عن أن يحتلوا أماكنهم فى الصَّدَارة أو يجيئوا مع الرعيل الأول ممن تعابثوا بالذهب

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

فى طفولتهم ، فمجدوا أحداثا ولمعوا مبكرين بمواهب فِجَّة بسبب الأسرة والجاه . . !! .

* * *

لقد كان الشاعر تكفيه « الجراية » مع ما يرسله إليه والده من « الزوادة » كل شهر ، فإذا سولت له نفسه أن يطيش يوماً فيصيب أكلة شهية . . فعليه وحده تقع تبعة هذا الطيش الأخرق ؛ إنه الجوع ينتظره ـ إن هو فعل ـ أياما وأياما . . ! ، وإذا أغراه ظَمَؤُه العلمى أن يشترى كتابا كان قد أُعجب به فإن عَلَى مكتبة بلدية الإسكندرية ذات الحجرة الضيقة أن تصرف عن نفسه هذا الإغراء الذى سيهدده بالمسغبة التى قد لا يعرف لليلها صباحا ، إنَّ على المكتبة وحدها أن تروى ظمأه من هذا الكتاب بالمجان . . ! ! ، وإلا فإن الإفلاس سيتخذ من حافظة نقوده ـ إن كان لديه حافظة ـ مستراداً ومذهباً ، وربما إلى أمد لا يعلمه إلا الله وحده ! ! .

ثم حين خرج الديب من التعليم إلى الطريق . . أو أُخْرِج قَسْراً إليه ، صادف فى عيشه ما صادف من أحداث ونوب ، وهكذا صنعت منه الأيام شاعراً شعبياً لا زيف فيه . . وصاغت منه فنانا مصريا يهتف ـ وإنْ لم يقصد ـ بآلام الدهماء ، ويتوجع ـ وإن لم يرد ـ أحزان الحُفَاةِ والمستضعفين . . ! ! .

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

فلقد ربطه فشله فى إدراك آماله بالأحياء الفقيرة ، وقربت أحزانه ما بينه وبين ساكنيها المجهدين ، فهو فى « الباطنية » جار أو جليس لمكدود أو جائع ! ! ، وهو فى « كفر الزغارى » أنيس أو صديق لمعدم مثله مهلهل الثياب والآمال !! ، فإذا ماانحدر قليلا إلى شارع الغِنَى والتحف « خان الخليلى » تحولت عنه أنظار تُجَّاره المتخمين من « العجم » وأشاحوا عنه بوجوههم وكأنه لعنة تتقى أو مكروه يجتنب . . ! ! ، فيمضى فى ترفع واستعلاء تهمهم شفتاه فى حقد وضغينة :

وَثَوى فى « الخان » أَوْ شَابُ العَجَمْ
مُكْرِمُو الغِلْمان أعداء الكرم ! !
صَائِدُوا الأَطْيَارِ من بين الحَرَم
« لستُ مظلوما . . فإنى ظالم »

وإن هو سعى إلى « بار اللواء » ، اصطدم هناك بالأكراش المنتفخة والأفقية العِراضِ من أهل الثراء وأدعياء الأدب ، هذا يعابثه ، وذاك يسخر منه . . ولكن الشاعر لايملك أن يغضب أو يثور لأنه جائع يحتاج إلى المال ، المال الذى يُذِلُّهُ أمام هؤلاء السادة المترفين ، فإذا أصاب شيئا منه رجع إلى « وطنه الأول » وربما تنفس قليلا فى حارة اليهود . . ، فإن مخالطة الفقراء ، والسمر مع الحفاة أحفظ لكرامته

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

وأبقى على الصُّبَابَةِ من كبريائه ، وقد يضيف إلى ما كان قد هجا به « العجم » قوله :

الطِّلاَ والـكاس والساقى الرشيق ... قد يطول العُمْر بالخمر العَتِيق !
مِن أغَنِّ الصوت مِكْسَالٍ رقيقْ ... « لست مظلوما فإنى ظالم »

* * *

وهكذا عاش الديب فى هـذه البيئة التى تلهث فقراً وتتنفس مرضاً وحرماناً ، ومن ثَمَّ كان لسانها الناطق فى الإعراب عن مواجعها وكان ترجمانها الأمين فى الإفصاح عن أحزانها التى لا تنتهى .

إن الشاعر حين يرى على وجوه هؤلاء لهفة إلى الرغيف . . وحين يشِيمُ فى صدورهم جزعاً من نقص وزنه على عهد إحدى الوزارات عام ١٩٤١ ينتفض انتفاضة شاعرية تجعل من لهفتهم وجزعهم صورة حية تكاد تلمسها بيديك إذ يقول :

صَغُرَ الرغيف .. كأنَّما هو قطعة ... من قلب تاجره وجِلْدِ البائعِ
هل صَار وَهْمًا .. أم خيالاً؟ إنّه ... قد عادَ غير مُؤَمَّلٍ أَوْ نافع
لو كان سُمًّا ماتَحَرَّمَ آكِـلاً ... أَوْ كان ذا أَثَرٍ بوجه البائع !
قد كان شيخاً للطعام ، فما له ... قد صار شِبْهَ وَلِيدِ شهرٍ سابع !!
القمح أَوْفَرُ غلة فى أرضكم ... والأرْض لم تُنكَبْ بِمَحْلٍ فاجع

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

والنيل مازال الوفىّ بعهده يجرى بِسَلْسَالٍ وفيرٍ هَامع
ياللرغيف ، ويالهول ضُمُوره قد صار أُمْنِيَةً لبطن الشابع !
« جوعوا تَصِحُّوا » .. واذكروها حكمةً
فالمجد لم يُكْتَب لغير الجائع !

وحين يقول :

عادت سنون ابن يعقوبٍ ودولته وَآدَنَا المَحْل ، لاماء ولاشجرُ
نرعى الهَشِيمَ بوادينا على سَغَبٍ
واليانِعَ النَّضْرَ يرعى السَّابِعُ البَطِرُ
إذا استغثنا طبيباً فى مواجعنا بدَا لنا جُرْحُه والموت ينتظر !
وكم سحاب رجوناه ليُمْطِرَنَا فجاءنا من ندَاه الجَمْرُ ، والشرر
حتى الرغيف فقدناه .. ولا عجب فنحن فى أُمَّةٍ أَيَّامُهَا عِبَر
فى الحرب والسلم نشكو ليس ينجدنا إلا خَبِيثٌ يُرَدِّينَا ويعتذر !!
أجنة الخلد فى مصر مُصَوَّحة والنار فى غيرها للخير مدخر !؟

وهذه الصرخة المعبرة عن آلام الشعب والتى أرسلها الشاعر فى قوة وجرأة كانت مع الأسف مسلاة لبعض السفهاء المتأدبين، فلقد كتب أحدهم دعابة ضاحكة من هذا الحرمان الذى لم يَكْتوِ الديب بناره وحده ، وإنَّمَا اكتوت به الملايين من الشعب المصرى حينذاك ، كتب هذا اللسان المهذار يقول :

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

« سقطت قنبلة فى حى غمرة .. فانفجرت طبيخاً .. وقد هرع إلى مكان الحادث الشاعر عبد الحميد الديب !!. »

فأى إنسان هذا الذى يتخذ من المأساة مسلاة ! ، وأى قلب هذا الذى يصفق طرباً فى مأتم الدموع والجوع ..! أكبر ظنى أنه لايحمل قلباً لأنه ليس بإنسان .

* * *

وقد توثقت حياة الشاعر كذلك بحياة الفلاح المصرى ذلك الذى يمتص عرقه وهو يكدح فى حقله تحت أشعة الشمس المشرقة .. ! ، إنها بيئته التى درج فيها وهو طفل صغير ، فهو لم ينس بعد ذلك الجبين المُغَضَّن التى سطرت الآلام عليه سطوراً من الأسى لايمحوها الزمن ولا يطمس تجاعيدها تعاقبُ الأيام والليالى .

إنه الفلاح الذى كان يكد ليسعد السادة المالكون ! ، والذى يجيع نفسه وأولاده ليشبع بطوناً مدلاة تتجشأ تُخمة وتسترخى مترهلة فى ظلال الراحة والدعة ..!

إنها الفأس التى يحملها هذا الضحية المسكين على كاهله صباح مساء ليُنْبِتَ بها سعادة سكان القصور من الأغنياء بينما هو يَخُط بها قبره لنفسه ، ويحفر بها الرمس لأولاده الجياع المهازيل !.

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

إن هذا الفلاح المصرى وفأسه قد صورهما الديب فى قوله :

كُلُّ الحياة بهذه الفأسِ ... من أخمص الدنيا إلى الرأس
حَسْب ابْن بَجْدَتِها وحاملها ... بين البرية عِزَّة النفس
بين المُروج عروسها تُجْلى ... وتُزَفُّ من عُرْسٍ إلى عرس
كم أنبتت فى قَاحِلٍ ذهبا ... وجَرَتْ على الأزهار كالكأس
هى فرحة ، إلا إذا حُمِلَتْ ... لِتَشُقَّ مَثْوَى المَيْتِ بالرمس
فى يومها عُرْسٌ .. وفى غدها ... جنى لما أجدته فى أمس
وتُرَى على كَتِفٍ مجرحة ... كالتاج مُلْتَمِعًا على الرأس !

وبعد ، فليس عجيباً أن ينضج الألم على تعاقب الأيام فى مثل هذا القلب الكبير ، وأن يشب الحزن على توالى السنين فى ذلك الروح القوى .. وليس عجيباً كذلك أن نسمعه ينتحب فى قوله :

وداعاً شَبَابِى فى ربيع شبابى ! ... وأهْلاً حسابى قبل يوم حسابى
وما يبتغى من عاش غير مُوفّق ... ثلاثين عاماً فى أسىً وعذاب
بَنَى فوق دار الشمس دَارَةَ مجدِه ... فسا كنه فيها نَذِيرُ خراب
طلعتُ على الدنيا فلا النُّورُ فى الدُّجى
ولا الروضة الفَيْحَاء وسط يَبابَ

www.alkottob.com

ولـكن حَظّي بَدَّل النور ظُلمة ... و بدّل ما أَشْدُو نَعِيبَ غُراب
وَبُؤْتُ من الأيام وهْى هَوَامِعٌ ... بِحَظِّ العَطَاشَى من جَهَام سحاب!
أمانِيّ تَفْرِيها الخُطوب رأيتُها ... كأَشْلاءِ قَتْلَى فى رُءوس حِراب
ولو انّ وَهَّابَ الحظوظ أرادَ لى ... سَلَامَةَ إحْداها لخفَّفَ مابى
ولـكنَّها مَاتَتْ بليلةِ عُرسها ... ومن دَمِها الغالِى تَخِذْتُ خِضَابى

وقوله :

لم يُخْلق الحُزْن إلا فى جَوانِحنا ... ولا المدامع إلا فى مَآقِينا
لو ذَاقَ هذا الوَرَى مِعْشار محنتنا ... مَا قَارَفُوا عيشهم دنيا ولا دِينا
ولا أقاموا على الدنيا وإن ظَهَرُوا ... بِصَفْحَتَيْهَا «سُليمانًا وقَارُونا»!!

* * *

عدل الديب من الأزهر إلى دار العلوم ، ليظفر بالمكافأة الشهرية التى تمنح للطلاب حتى تعينه على بعض أمره ، وقد وجد فى دراسة المعلقات والشعر عامة ماأرضى خياله وأشبع نَهَمه ، فنهل من ذلك المعين الفياض ما شاء الله أن ينهل ، فطبعته الصور الشعرية القوية بطابعها ، ولغة البيان العربى فى بردته الموشاة ، فجاء أعجوبة العصر ، ونابغة من نوابغ هذا الجيل .

وكنت أراه يقسم إعجابه بين شاعرين عظيمين هما طرفة بن العبد

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

وعروة بن حزام ، فهو طروب مع طرفة حين ينشد له :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عُوَّدِى

وحزين مع عروة إذ يروى له :

تحمَّلت زفرات الضحى فأطقتها وما لى بزفرات العشِيِّ يدَانِ

ولهذا فقد كان الديب لاهياً فى حزنه ، حزيناً فى لهوه ، وكأنه كان فى شعره يتلفت بعين إلى طرفة وبالأخرى إلى عروة ، فجاء قصيده قوى الأَسْرِ حزين الإنشاد .

ومضى فى دار العلوم رتيب الحياة ، متألق النفس ، مقبلا على الأدب بروحه وقلبه جميعاً ، وظل هكذا لامعا بين أقرانه محبوباً من زملائه أثيراً لدى أساتذته ، حتى أن أستاذاً معروفا بالأدب كتب يقرظه فقال :

— يقولون « بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » وأقول « بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بعبد الحميد » ، يقصد عبد الحميد الكاتب على عهد بنى أمية وصاحبنا الشاعر البائس « عبد الحميد الديب » .

وحسبك أن تقرأ قصيدته فى وصف مباراة طريفة لكرة القدم جرت عام ١٩٢٣ بين دار العلوم والمدرسة الخديوية ، وسترى كيف

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

عالج الشاعر فيها هزيمة فريقه « المعمم » حين انتصر عليه الفريق « المطربش » فى سبعة أشواط ، ولكنهم تركوا له شوطاً واحداً يحرز فيه النصر ، غير أن الديب أبى إلا أن يسجل « للمطربشين » تسامحهم النبيل وأن يحمد لهم هذا الكرم السخى . . قال :

خَليلىّ عُوجَا نلتمس لقلوبنا ... من الهَمِّ سَلْوَى لاَ أبالأَ بِيكُمَا
إلى ملعب ما كَدَّرت من صفائه ... ضغائن تذكى فى القلوب مضرما
به فتية أعْيَا خيالى وصفهم ... أراهم رِجَالاً أم أراهم ضَرَاغِمَا ؟
فَأَمْرَدُهُمْ أَرْبَى على الشِّيبِ حكمة ... إذا شَامَ ما يُرْدِى يَفِرُّ منظما !!
فياعجبا من حَلْبَةٍ حَضَرِيَّةٍ ... بها القوم صَرْعى ، لا رماح ولا دما !!
أرى كرة الأقدام كانت كأمَّةٍ
تَشَكَّى من البلوى فلم تُلْفِ راحما
تَفِرُّ فرارا من قَسَاوَةِ ظالم
إلى غيره كرها فَتُلْقِيهِ أظلما ! !
تُصَوِّبُها ساق فَتَهْوِى كأنّها ... حمامة صياد بأحشائها رمى

* * *

ظَفِرتم علينا بالمجال حَذَاقَةً ... بسبعة أشواط ونِلْتُمْ مَغَانما
وما كان حقاً أن أُدِيلَ عليكمُ ... بشوط فإنّ الحق لن يُتَكَتَّما

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

وإنا وإيا كم كأغصان دَوْحَةٍ ... سقاها نَميرُ النيل سَجْلاً على الظّما
فما ضَرّنا أَنَّا اختلفنا شَعَائِراً ... وما ضَرَّ ذا الطربوش أن يَتَعَمَّمَا
فأهلا بكم يا قوم . . أهلا بمعشر ... علينا بِآلاءِ الجميل تقدما
تحييكم دار العلوم وأهلها ... ولو نطق البنيان جاء فسلما

وإن هذا البدء القوى الذى صحبه فى فجر حياته كان يبشر بما ينتظره من نبوغ ومجد لو أنه لم يسلك السبيل المعوجة التى أفضت به إلى المحنة وقعدت به عما يُطلب من أمثاله الموهوبين اللامعين ؛ ولكنه فجأة هجر العلم ومَلَّ صحبة العلماء ليجد فى المدارس الأهلية مهاجراً وضيقاً ؛ فما كان يستقر فى إحداها حتى يتحول عنها إلى غيرها . . فإذا أجهده التطواف ، وآمن بالفشل ، عاد إلى القاهرة أو « عش الذكريات » كما كان يسميها ، ليبدأ بها حياة شاقة مريرة تعتصر نفسه بالأسى وتجلل أيامه بالسواد .

وكأنّ الديب كان يشعر فى أعماقه أن عودته إلى القاهرة مهيض الجناح مضيع الأمل سيسلمه ـ لا محالة ـ إلى بؤس طويل وتشرد أليم ؛ وشعوره هذا يتجلى فى قوله :

أعود اليوم لِلرَّبْعِ المَحِيل ... وأُوه الناس من قَالٍ وَقِيلِ
بقهوة « عَسْكَرٍ » ينبوع بؤسى ... فَيَا لَلّهِ من بؤسٍ طويلِ

www.alkottob.com

وفى مطلع قصيدته الرائعة :

رضيتُ ومن يَمْرَنْ على حزنه يرضى فَيَاظِلَّ أَحْلَامٍ تَقَلَّصَ وانْفَضّا
و ياسامرَ الدنيا وموكب يُسْرِها تجَافَيْتَ بِي نَفْلاًوأَنْكَرْتَنِي فَرضا

* * *

وهكذا استهل الديب حياته فى صورة حية من الفشل الذريع والخيبة الممضة ، وكان قلبه الكبير ميداناً لحشود متلاحقة من الآلام المبرحة والأحزان العاصفة ، فهو حين يصحب الأيام نجده ينظر إلى مابها من مفاتن ومباهج من خلال ما انطوى عليه قلبه من آلام وما احتشد فى صدره من أحزان ! ! ، فإذا قَدَّمَتْ إليه الحياة رشفات من كأس سعادتها المترعة رشفها الديب وهو ينتحب من بأساء العيش وشدته ، فتتساقط دموعه الغزيرة فى كأسها تلك . فما يدرى صاحبنا : أهو قد ارتشف من كأسها التى قدمت ، أم هو يشرب من صبيب دمعه الذى قد أراق ؟ ! .

* * *

إن نشأة الديب وثقافته تركتا أثراً واضحاً فى شخصه وفنّه ، فقد نبت فى أسرة فقيرة ، حرمها « الإقطاع » كما حرم غيرها وسائل الاستقرار وأسباب العيش المطمئن ، فشب الشاعر على الحرمان ودرج

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

على مايشبه الكفاف ، وقد ترك كل ذلك فى نفسه جراحات عميقة الغور ، فمضى — فى شتى أدوار حياته — منطويا على الحقد يلتمس ثأره عند من عرف ومن لم يعرف ، ويصاحب السخط ليلقى به المترفين الذين يعتصرون دماء الفقراء ويتخذون من المستضعفين عبيداً أرقاء ؛ وربما يسلمه السخط أحياناً إلى النقمة على كل ذى نعمة ، لأنه يرى فيه الغاصب لسعادة أسرته ، واللص الذى حرمه الثراء والنعيم ، وقد وجد من ثقافته فى الأزهر ودار العلوم خير عون له فأودع حقده ونقمته فى صوره الشعرية الرائعة ، تلك التى تنبض بالحياة وتجيش بشتى أحاسيسه المرهفة .

* * *

ولم يجد الشاعر تعليلا مقبولا لإخفاقه حيث تألق نجم المغمورين من أضرابه إلا أنها المقادير التى ظاهرها تفشّى القالة عنه بين الناس ، فنحن نراه فى عامة شعره فى هذا الباب مؤمناً إيماناً لايرقى إليه الشك أن الأيام والحاقدين عليه قد تظاهرا فى الكيد له ، والغض من قدره فى كل مناسبة ، فإذا لم تعرض هى من تلقاء نفسها خلقها الحاسدون خلقاً والتمسوها التماساً للنيل من هذا المستضعف المسكين .

والشاعر يؤكد لنا كذلك أنه يترفع كبراً من مدافعة تلك الوسائل الرخيصة بمثلها لأنها لا تليق بطبع الفنان النظيف ، فهو القائل :

وَكَمْ مَرَّتْ النُّعْمَى عَلَىّ بَسِيمَةً فأَبْعَدَهَا عنِّى وَضِيعُ الوسائل

أو أنه — على وجه الدقة — ما كان يستطيع مدافعتها حتى لو تهيأت له الوسائل إلى ذلك ؛ لأنه كان ضعيف الحيلة من ناحية ، ومكذّب الحديث مجرحه من ناحيـة أخرى ، والناس بطبعهم إنما يصدقون الأقوياء ذوى الحيلة ، ويستمعون إلى أولئك الذين يمجدون الصـدق بأفواههم أمام الآخرين ولو أنـكرته قلوبهم وجحدته تصرفاتهم العملية ..!! ، ولأنهم بما أوتوا من حول وطول يرتفعون فى نظر المجتمع عن النقد والتـكذيب ، ولهذا نسمع الديب يقول :ـ

أَفْنَى صَبُوحى فى المنى وغَبُوقِى ... أَنِّى امرؤ كَسَدَتْ بقومى سوقى!
زَعَم العواذل : أن سعيىَ فاشل ... والنحس توأم عيشـتى ورفيقى
لَوْلَا مُنَاوَأَةُ الزمان لهمتى ... أَزْرَى بنور الشمس نور شروقى!
أقسى على من الخطوب تَبَرُّمٌ ... بى من قريب عاطف وصديق
وإذا انْبَرَى الحَنَّانُ يكشف كُربتى ... جرحوه واحْتَسَبُوه شر شـفيق ! !
يامحنة أكلَ الشقاء شـبيبتى ... فيها ، وهَجَّنَ الخطوب عَرِيقى
ولبستُ باليها بِعُرْسِى مكرهًا !! ... وشربت آسِنَهَا عَتِيقَ رَحِيق
لو لم يكن نُبْلُ الحيـاء طبيعتى ... أقسمت ماعرف الشقاء طريقى
فبكل مضمار سَبَقْتُ ، وإننى ... لأعيش عيشة خَاسِرٍ مَسْبُوق

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

مِحَنٌ لهـا عزم الجرىء وصبره
والصـبر أجمـل مايفرج ضـيق

* * *

والديب فى محنته لا يفتأ يلوم الأيام ويتهم الأصدقاء ، وقد جرى فيه هذا مجرى العقيدة ، وحل فى قلبه محل الإيمان ، فهو على يقين من أن حظه العاثر فى الحياة إنما مرده إلى هذين النبعين المتقدمين ، فهو حين ينظر إلى نفسه يجد فيها قدرة على العمل ، ونزوعا إلى الـكسب الحلال ، فما باله إذن حين يحاول ذلك يلقى الأبواب كلها موصودة دونه ، ويجد السبل جميعها تفضى به إلى الفشل والإخفاق . . ! !

والحق الذى أستيقنته : أن الديب كان حليفاً وفياً لسوء الحظ ، ومحطا تقف عنده لعنة الأيام ، وتنتهى إليه غضبة الدهر . . ! ! ، وما رأيت ــ على كثرة ما رأيت ــ بائساً كان على شاكلة الديب ، أو ممتحناً لازمه هذا الطالع المنـكود ، فقد أبصرت بعينى رأسى فى هذا الصدد ما أفزعنى من عبوس حظه ، ولمست منه ما عطف قلبى على أليم محنته . . فقد كان الديب ــ ولا أدرى لماذا ؟ ــ ملعونا من السماء ومجفوا من فجاج الأرض ، فإذا تهادت فرحة أمام عينيه فما يكاد يبتسم إليها الشاعر حتى تتجمع حولها سحب قاتمة تزحف إليها من مطالع نحسه لتجلل إشراقها بالسواد ، ولتبدل من نورها المتألق ظلمة وقتاماً . . ! ! ،

www.alkottob.com

وكنت كلما رأيت مثل ذلك من أمره يستبد بى العجب ، ويتملكنى شىء غير قليل من الرهبة والفزع ، وقد يدفعنى ذلك أحيانا إلى أن أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، على حين أن المنطق كان يقتضينى أن أستعيذ به سبحانه من حظ الديب لا من الشيطان الرجيم ، ولكنها العادة . . فقد درجنا ـ معشر الإنس ـ على أن نتجنى على الشيطان ، وأن نلقى على كاهله أوزارنا التى نقترف بمحض اختيارنا وأن نصرف إليه ما نكره أن نصرفه إلى أنفسنا وإرادتنا . . ! ! .

وكان حظ الديب دائما يذكرنى بحظ الشاعر المعروف ابن الرومى ، فقد روى أن الخليفة أقطعه ضيعة وسط ضياع كثيرة لغيره من السعداء فنزلت صاعقة من السماء لم تصب إلا ضيعة ابن الرومى وحده . . ! ! ، وقد ذكرت ذلك يوما على سبيل المقارنة للمرحوم الديب . . فلم يزد على أن قال لى :

« ولكن ابن الرومى ملك يوما ضيعة وإن تكن قد احترقت ، أما أنا فلا أملك إلا « الضيعة » فى هذا البلد » .

وهذا حق لا جدال فيه ، وحسب القراء فى هذا المعنى ، ما أقصه عليهم فى إيجاز وأمانة :

كنت « مفلسا » حينما التقيت بالديب وهو فى حالة من الإعياء والتعب الشديدين ، فقد كان جائعا لم يتناول غذاء ، وكانت الساعة قد

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

أوفت على السادسة مساء . . ! ! ، ولما بيننا من صداقة ومودة كاشفنى بدخيلة أمره ، فاستعرضت فى مخيلتى أسماء الأصدقاء الذين لا يتجهمون لى فى مثل هذه الأحوال علنى أجد لديهم « قروشا » أهيىء بها للجائع الصديق طعاما وقهوة ولفائف تبغ ، وكان الصديق النبيل عبد الحميد قطامش « المحامى الآن » فى طليعة الأسماء التى قفزت إلى مخيلتى ، فصحبت الديب إلى « العمرى » حيث يسكن ذلك الصديق ، ولكنا وجدناه قد سافر إلى بلدته لأمر قد عرض له ، وحين علم الديب بذلك تجهم وجهه قليلا ليقول لى : هذا نذير سوء . ولأننى لم أر فى سفر الأستاذ قطامش أمراً غير طبيعى جذبته فى عنف لنطرق باب صديق آخر كنت أقترض منه حينما تستحكم الأزمة ، وما راعنى إلا أن يتجه إلى الديب ليقول فى جد وصرامة :

« إن قلبى يحدثنى أننا لن نجد صديقك هذا بل ربما سنجد داره قد انتقلت من الحى الذى يقيم فيه إلى حى آخر من أحياء القاهرة » .

فضحكت من طرافة النكتة ، وحلو الفكاهة ، ثم مضينا إلى غايتنا التى كنت أقصد ، وحين طرقت الباب خرج إلى من يسكن بجواره ليقول لى : « إن جاره قد أصيب فى حادث منذ ساعة وقد حمل إلى المستشفى . . ! ! » .

وحينئذ تلفت إلى الديب فى ذهول وفزع فوجدته معرورق العينين

www.alkottob.com

حزين النفس وما زاد أن جذبني لأنصرف معه وهو يقول : « ألم أقل لك يا صديق إنني ملعون في السماوات والأرض ، فلقد جنى حظي على زميلك المسكين فليته ما دار بخلدك حين رمت تفريج كربتي . . !! » .

تلك قصة من قصص ، وحادث من حوادث قد جعلاني أومن أن الديب كانت تلاحقه اللعنة وتركض من خلفه الأحداث .

* * *

وليقيني أن في شعر الديب سهولة قد يصعبها الشرح ، وأن فيه جزالة قد يُهَجِّنُهَا التعايق والبيان . . لهذا أوثر « وسأوثر دائما » أن أدعه وحده يرسم للقراء صورة من حظه ، لأن الديب حين يرسم صورة لقرائه يتخذ ألوانها من آفاق حياته ، ويستعد ظلالها من تطواف حسه ، ويستوحي لوعتها من قلق نفسه ، فإذا أراد لهذه الصورة أن تنطق استعار لها تعبيراً من روحه القوى حتى تنكسب كاملة في الآذان كما صور :

حظي ومَصْرَعُه في لين أخلاقي وفيض عطفي على قومي وإشفاقي
وَمَنْ حَبَتْه الطِّلا أَخْلَافَ نَشْوَتِها
عَدَا على الكأس طوراً أو على الساقي
بين النجوم أناس قد رفعتهمو إلى السماء فَسَدُّوا بابَ أرزاقي !!

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

يا أمـــةً جَهِلَتْنِي وهى عالمـــةٌ
أن الـكواكب من نورى وإشراق

أعيش فيكم بلا أهل ولا وطن
كعيش مُنْتَجِـعِ المعروف أفّاق !!

وكنت نوح سَفِينٍ أُرْسِلَتْ حَرَماً
للعالمين . . فجاوزنى بإغراق ! !

وليس لى من حبيب فى دياركمو
إلاّ الْحَبِيبَيْنِ : أقلامى وأوراقى !!

لم أَدْرِ ماذا طَعِمْتُمُ فى موائدكم
لحم الذَّبِيحَةِ أم لحمى وأخلاقى

وما تألمت من خَطْبٍ ضحكت له
كما تألمت من خَطْبِى بِعُشّاقى

أنا على القُرْبِ منهم كلٌّ متعتهم
وَإِنْ نَأَيْتُ حَبَوْنِى فَيْضَ أشواق

فما لهم قد أشاعوا كُلَّ مُخْجِلَةٍ
عنى ، وأعلنوا بُؤْسِى بأبواق ! !

كصاحب الطَّيْرِ : لا يَنْفَكُّ يسجنه
سجنين من قَفَصٍ مُضْنٍ وَأَطْوَاق

رِيشَتْ لغدرى سهام من نميمتكم
فصارعتنى وما لى دونها واق

قالوا غَوِىٌّ . . شَقِىٌّ . . قلتُ : يا عجبا
قد امْتُحِنْتُ بِفُجّارٍ وفُسّاق

حظى : هو الأَيْكَةُ الخرساء ذابلة
هو النسيم سموماً غير خَفّاق !

هو السحاب جَهَاماً ، والنَّدَى أَسِناً
هو الضياء به موتى و إحراق !

كأنَّه أَذْرُعٌ شَلاَّء راحتها !
أو أنه أَعْيُنٌ من غير أَحْدَاق

لا تسألونى عن بؤسى وعلّته
سلوا به الحظ مَيْتاً فوق أعناق

www.alkottob.com

هذا والديب حتى فى مزحه وفكاهته ما كان ينسى أن يصور كبوه حظه تصويراً بارعاً ، فأنت حينما تلمس بعينيك ما كان قد صور فى هذا الباب ينتابك شعوران مختلفان : شعور بالضحك العميق من براعة التصوير ، وشعور بالأسى لما مُنى به هذا البائس المسكين ؛ فأنت دائما مع الديب على أمرين لا انفصام بينهما . . ضاحك باك ، ومبتهج حزين . . ! ! .

وكم كنت أود أن أمتع عشاق فن الديب بهذا اللون الفريد الذى برع فيه مطبوعاً غير متكلف ، يقينا منى بأن معرفة الرذيلة تفضى لا محالة إلى اعتناق الفضيلة ، وعلما علمته : أن رواية الشعر الخليع لا تجرح ورعا ، ولا تفسق عدلا ، فلسنا ـ مهما ادعينا لأنفسنا ـ بأورع من عالم الأمة وخزانة علمها الصحابى الجليل عبد الله بن عباس «ابن عم النبى محمد صلى الله عليه وسلم» حين سئل وهو فى البيت الحرام : هل رواية الشعر تنقض الوضوء ؟ فأنشد ما أنشد من شعرٍ يعرفه كل أديب ، وقام مع ذلك إلى صلاته يؤديها ، فكان جوابا .

وكنت أود أن أقتدى بالصحابى الجليل ابن عباس فى إمتاع عشاق فن الديب لولا ما تواضعنا عليه من أمور قد تكون شفيعا لى عند السادة المرتقبين .

على أن قصيدته المعروفة التى استهلها بقوله دع الشكوى ـ تلك

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

القصيدة التى ينكرها عليه صديقنا الشاعر الأستاذ محمد مصطفى حماد والتى لا أشك فى أن جانبا كبيراً منها للديب ـ تمثل جانبا هاما من جوانبه هى فى رأيي جديرة بالبحث ، وخليقة بالدراسة ، والذى أستطيع إثباته منها هنا قوله :

وهام بى الأسى والبؤس حتى كأنى عَبْلَةٌ والبؤس عَنْتَرْ
كأنى حائط كتبوا عليه هُنَا يا أيُّها المَزْنُوقُ طَرْطَرْ

www.alkottob.com

الفصل الثاني

بدء المحنة وآثارها

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

من حق القراء أن يعلموا أن ماأجده فى قلبى للشاعر من « حب وألم » قد جنحا بى قليلا عما رسمته لنفسى فى دراسته ، فقد كان يقتضينى البحث العلمى أن أصاحبه فى شبابه حتى أوسده قبره ، وأن أترسم فى ذلك المعالم الطبيعية التى تلقى عليه أضواء كاشفة لتجعل منه شخصاً ماثلا للعيان ، ولكنى آثرت ـ فيما أكتب ـ أن أدفع عنه أولا بعض الظنون ، وأن أحذر العقول حتى لاتراه « جباراً عتيا » كما يزعم لنفسه فى مثل قوله :

أَنَا ، أَوْ إبليس ، للدنيا عَمىً هُوَ خَافٍ ، وأنا أبدُو جَلِيّا

آثرت هذا ، وآثرت أيضاً أن أتناوله فى « مجد محنته » لأسجل أحاسيسه الخفية التى كانت تجيش فى مسارب نفسه ، ولأصور المشاعر التى هيمنت على كيانه فتناول بها الحياة تناولا نفّر منه المجتمع وأحنق عليه طائفة من المتزمتين .

* * *

كان من دأب الشاعر أن يختلق للصور الخيالية من شعره حادثاً يراه مناسباً للمقام ، فهو حين يجلس إلى السّمار وفيهم العدو الشامت ، والصديق الراحم يقدم بين يدى كل قصيدة من قريضه مايخلع عليها الرواء والجلال حتى تكون متجانسة مع إطارها الذهبى ، وكان يضيف

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

إليها فى كل جلسة شيئاً جديداً لم يكن الخيال قد أسعفه به من قبل ، فإذا عنَّ لجليس أن يذكّره بما كان قد روى آنفاً ، انفجر ضاحكا واعتذر بأنه الخيال الذى لاحيلة له فيه ، ثم يضيف : « ما للناس وما أقول ؟ إنهم يتجنون على فى كل شىء ، ويحولون تكذيبى حتى فيما أنسج لنفسى من خيال ! » .

لقد آذته الحقيقة بما وجد فى رحابها من حرمان وبما لقى فى كنفها من محنة ، ففر منها إلى عالم الرؤى والأوهام ، علّه يجد الهدوء الذى ينشده ، أو يظفر بالسعادة التى يرجو ، وهاهو ذا يعترف بفراره من معترك الحياة الجادة لينشدنا من حانة « الحاخام » فى حارة اليهود :

هَاتِ المُدَام .. فدين الله تيسير! فأسعد الناس مخمورٌ ومخدور
هاتِ المُدام .وَلَا تعرِضْ لِمَتْرَبَتِي مهما غَلَا العيش لم تَغْلُ القوارير
هات المدام الصَّبُوحَ البِكْرَ يحملها إليك أَخْنَسُ سَاجِي الطرف مغرور
إذا دعوتَ تراخى عنك مُعتذراً وأسكرتْ كالطِّلَا منه المعاذير
فَدَيتها حانة الحاخام هادئة سَكْرَى يُعَرْبِدُ فيها الحُسْنُ والنور

لقد هُرِع الشاعر إلى (السموم البيضاء) فى حى (الزّهار) يلتمس لديها ماعسى أن يكون قد عز عليه فى اليقظة وليعيش فيها على حد تعبيره

فى « مثل أطياف الجنة » ، وهناك وفى أوحال هذا الحى الدنس صنع الديب فردوسه المنشود ، وسوره بالمنى العذاب والآمال الحلوة ، فما يكاد يخرج منه إلا ليرجع إليه ، كأنما كانت تشده إليه أكواخه القذرة سلاسل غير منظورة لايستطيع لقوتها دفعا ، فإذا تناول « الوجبة » واستبد به المخدر ارتمى تحت حطام عربة مهجورة ، أو استلقى فى ظل جدار متداع ، يحلم بالسعادة التى يسعى إليها ، ويخطر فى مغانى المجد الذى يكلف به ، ولا يزال كذلك يسبح فى خيال دافىء ، ويهيم فى وهم رفاف ، حتى إذا ماذهبت عنه النشوة ، وأخذ رشده يعود إليه ، تلمس الفردوس من حوله فما يجد منه إلا خرائب متجهمة ، ونادى سعادته ومجده ، فما يجيبه من هذين إلا أصداء شقوة لاتنتهى ، وذلة لا تحتمل .

* * *

وفى حى الزهار مضت به المحنة إلى غايتها ، فقد اعتصر المخدر شبابه ، وأذبل نضارته ، ولكنه على عنفه وشدة وطأته ، لم يستطيع أن يصرع روحه الجبار ، أو يطفىء فيه شعلة العبقرية المشبوبة ، فظل الديب يشدو فى تلك الخرائب بألحان جريحة ، وأنغام حزينة ، والعجيب أنه إذا أشجاك اللحن ، أو أبكاك النغم ، ثم تلفتت عيناك إلى الشاعر ، وامتدت أذناك إلى لحنة الحالم الدامع ، وجدت مايروعك

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

ويذهلك ، فبينما ترى بعينيك رثاثة وعبوسا فيمن يشدو إذا بالشدو ينسكب فى أذنيك لحنا علويا كأنما يفد إليهما من السماء .

ظل المسكين فى تلك الغاشية يختلف إلى أصدقائه ، يرهقهم بالسؤال ويلاحقهم بالألحاح ، وكان هؤلاء يلينون له حينا ، ويخشنون معه حينا آخر ، وهو فى كلتا الحالتين ساخط على أمره ، برم بالمصير الذى انتهى إليه ، لأن بر الأصدقاء به يسلمه إلى المخدر اللعين ، وقسوتهم عليه تصيبه فى الصميم من كبريائه ؛ ولقد كان يأمل فى صحبه عونا حاسما ينتشله من خرائب الزهار ، لا قروشا تدفعه على الرغم منه إلى غشيان وادى الموت حيث يخالط هناك الشذاذ ويصحب فيه الدهاء والساقطين .

وهو حين يرجو منهم هذا كله يكلفهم رهقا ، ويروضهم على المستحيل ، فليس فى مكنة أحد أن يهيء له مسكنا يعصمه من التشرد ثم يجرى عليه رزقا يرتفع به عن السؤال ، وأخيراً رضى الديب بما يصيبه من هؤلاء من كرم غير موصول ، حتى إذا أبطأ عليه احتال له بمثل قوله :

مَافَاتَنِي منكَ عَطْفُ الصّحب والآلِ
يوما ، ولا بخلت كَفَّاكَ بالمال
احْبِسْ عطاءك ، مالى فيه من أَرَبٍ ما فى العطاء سوى فهرى وإذْلالى

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

ثم يجنح إلى الشتم فيقول :

ياضيعة الشعر ، يرضى بالعطية من أيدى طَغَامٍ وجهال وأنذال

وكثيراً ما كان يعطف القلوب عليه بالشكوى ، وهو فى هذا فارس الحلبة وصاحب اللواء ، فإن كل بيت من قصيده فى هذا الباب يعتبر ـ بلا شك ـ ملحمةعنيفة من ملاحم الأسى وموكبا حزينامن مواكب الحرمان ، فكأنما أقام الشاعر فى شطرى كل بيت مأتما يدفق بالدموع ويكتظ بالنأحات .

إنك لن تملك دفع الهلع عن قلبك حين تقرأ له :

ضَاقَتْ به الدنيا فَكُنْ رَحْباً بِهِ لقد ذَلَّ من غدر الزمان وَرَيْبِهِ

لا تنكرو الشكوى على مُتَبَرِّمٍ تَلِقِ الحياةِ ، كمن يُشَاكُ بثوبه

أَنَا لاأرى لى فى شبابى لذة لهفى على مَرَحِ الشباب وعُجْبِه !

مَن كان تَوْأَمُه الشقاء وصِنْوُه نُشبابُهُ حَرْبٌ عليه كَشَيْبِه

ولم أكن أعرف الديب وهو فى محنته تلك ، ولكنى حين عرفته وأنس إلى ووثق بى حدثنى عما لقى فيها من آلام مبرحة وتشرد مهين وكنت كلما حدثنى فى هذا الشأن ألمس فى حديثه حرارة الصدق ومرارة الشكوى ، حتى كان يخيل إلى وأنا أصغى إليه أننى كنت أصحبه فى محنته تلك ، بل طالما توهمت أنى كنت أختلف معه صباح مساء إلى ذلك « الحي اللعين » ، وكأنى الآن بصوته يرن فى أذنى متهدجا دامعا كلما

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

قص على هذا القصص الحزين ! شأنه فى ذلك شأن من ينكأ عليه جرح قديم كان قد التأم من أمد قريب ، فهو إذ يعاوده الألم من جديد فى هلع قاتل من آلام الماضى وأوجاع الأمس القريب ، ولئن كان الديب قد عودنى أن أرتاب كثيراً فى الأخبار التى يقص على ، إلا أننى أميل إلى تصديق حديثه هذا ، لأنه أفضى به إلى وهو فى معرض الاعتراف بأنه هو نفسه قد كان حربا على نفسه ، وأن ضعف إرادته أمام إغراء المسحوق الأبيض قد جنى عليه وأخمل ذكره ، وأنه لم يكن عادلا أحيانا لا مع نفسه ولا مع الناس ، حين زعم أنه الضحية وأن الناس هم الجناة الظالمون .

* * *

وقد صور لى فى حديثه شعوره بالفزع الذى هز كيانه حين أحس أن خلصاءه قد نفضوا منه أيديهم إبان محنته هذه ، حتى أولئك الذين كانو يتلهفون لسماع شعره تعمدوا أن يتجاهلوه فى الطريق وهو تحت أبصارهم بعداً منهم عن الشبهات ، وتجنبا لما قد تلوكه الألسنة إن هم حيوه أو وقفوا معه قليلا ، على أنهم قد كانوا من قبل يبحثون عنه فى كل مكان ، ويلتمسونه أينما كان .

وقد كان فزعه الأكبر مما كتبته بعض الأقلام فى بعض الصحف من وجوب التفكير فى مخرج للشاعر من تلك المحنة التى رمى بها ،

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

والاهتداء إلى وسيلة أية وسيلة لإنقاذه من تعاطى « الكوكايين » ، وصرفه ولو بالسجن عن حى الزهار ، وكان الديب رحمه الله فروقة جبانا يفزع من القانون ، ويفرق حتى من رؤية الشرطى فى الطريق العام ، فراح ينكر فى حرارة أنه يتعاطى المخدر ، وطفق يبث شكواه إلى زميلته فى النكبة تلك التى تسمى « فاطمة » ، وكان يزعم لنفسه أنه يحبها ويهيم بها ، ولعل هذا الشعور الذى كان يتملكه نحوها إنما هو لون من التعاطف الذى ولده انهيار نفسيهما بالمخدر ، أو لعل مرده أنهما كانا وقتئذ طريدين ، فهما فى حاجة إلى الحب الذى يسليهما عن نظرات الاحتقار والامتهان ولهذا ركن كل منهما إلى صاحبه واستراح إليه ، فالأحزان المتجانسة تربط القلب بالقلب وتؤلف ما بين النفس والنفس ، وكل حزين مغرم بحزين .

حقا إنه اضطرب للشائعات وخشى مغبة الأحاديث حول أمره هذا ، ورأى السجن أمام عينيه فذهب ينكر ذلك بما تجده فى قوله :

«أَفَاطِمُ إن الناس قد مَزَّقُوا عِرضِي وَصِرْتُ لَعِيناً فى السماء وفى الأرض
يقولون « شَمَّامٌ » وما شَمَّ مِعْطَسِي
سوى الروضة الفيحاء والنرجس الغَضِّ ! !
أليس بياض « الكوكايين » مُبَشِّراً
بأسود عيشٍ فى غَيَاهِبِهِ أَقْضِي ؟

ولم ينس أحد من جلساء الديب ما كان يسعفه به الخيال الجامح حين يتحدث عن أسرته أو قومه ، فإذا اجتمع الندىّ وتحلق الأدباء حوله « فى الحى الحسينى » ، ينظر إلى جلسائه فيجد فى بعضهم عراقة أسرة أو غنى وسعة ، فيعز عليه ألا تكون له أسرة ماجدة ، وألا يجد لديه مالاً يكاثر به هؤلاء .. وكأنه كان يرى أن مجده الشعرى ينبغى أن يسنده مجد عائلى ، فلا يزال يقص علينا القصص عن ثراء أبيه ومحتد جده .. ولا يزال يلعن « بورصة القطن » أن ذهبت بكل هذا وابتلعته ، فإذا استراب فى تصديقنا اقتصد بعض الشىء فى خياله . . حتى ينجو بنفسه من لذغات الخبثاء وتكذيب المستريبين .

ولعل مرد شعوره هذا إلى أنه كان مؤمناً بعبقريته إيماناً لا يجد مثله عند جلسائه ، فالناس كَلِفُون بشعره فى كل مجلس ، وهم إذا جد الجد ، يروغون منه ولا يعينونه على شئون الحياة ، وربما يصارحه بعضهم بأن بؤسه هو سر عبقريته ، وأنه من الأجدى على الشعر أن يظل هكذا بائساً مشرداً !.

ولهذا فقد يئس من عون المجتمع له ، وعاد فشك فى أن الموهبة غير كافية وحدها لمواجهة الحياة ، وأن المال هو الذى يصنع السعادة ويبنى المجد ، وما إن رأى الشاعر أن الأغنياء يغدون ويروحون فى موكب المال تحفهم المهابة ويتناثر حولهم الثناء ، حتى جنح إلى الخيال فى التماس

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

المال ، ولاذ بالوهم ليفضى به إلى الغنى ، ولـكن المسكين كان فى طلبه هذا كمن يروم السماء أو يقبض على الماء ، فما إن أعياه الطلب وأضناه اللغوب ، حتى ثاب إلى رشده ليهتف :

تَفَيَّأْتِ الدنيا مَدِيدَ ظِلَالِ وَمُدَّ على قومى رِوَاقُ جلال
وطال حنينى لِلْغِنَى ، ولو انّنى حَنَنْتُ إلى وجه الأله بَدَالِى

لقد ريع الديب من نـكبته ، وهاله ـ وهو الشاعر الموهوب ـ أن يشقى فى بلد فياض الثراء كمصر ، ففقد ثقته بنفسه ، وراح يسخط على كل شىء حوله ، ولم يعد يؤمن بتلك القيم التى صنعها المجتمع ؛ ذلك لأنه اختلط عليه فى معترك محنته الخير والشر ، فما عاد يميز بينهما ، فلربما التمس الفضيلة أحياناً فيما يسميه الناس رذيلة ! ؟ وربما شام الشر فيما تواضع عليه المجتمع أنه خير وفضيلة ، وكأنّه فى إحساسه هذا كان يجنح إلى أن يلقى الناس وجهاً لوجه ، هو وحده فى جانب ، وهم على جمعهم الـكثير فى جانب آخر ، لا يَفرق من أحد ، ولا يصانع منهم قوياً أو جباراً .. !! .

إنه نقم من كل شىء ، حتى شعره الذى كان يؤثره على نفسه ، ويُودِعه قطعاً من قلبه ، إنه اتهم قصيده بأنه كان « شريكا » مع الأحداث فى هيج أحزانه وبعث آلامه ، وأنه هو النبع المتجدد لبلوته

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

وشقائه ، كل ذلك نجده فى قصيدته الرائعة الباكية ، تلك التى تصور مامر أصدق تصوير :

بوادٍ كدار الخلد برِّ المنازل شَقِيتُ ، فمالى لا أفوز بطائل
أُقَضِّى به فى ليله ونهـاره معيشة أَفَّاقٍ ووحدة ثاكل
يقولون لى : كيف الشقاء مع الحِجَا
وفى شِعْرِكَ الْهَامِى عِذَابُ الْمَنَاهِلِ ؟ !
فقلتُ بهذا الشعر بؤسى وشقوتى كما قتل الصَّدَّاحَ زَهْرُ الخمائِلِ
فلا تسألونى عن دمائى وسفكها سلوا بِدَمِى الغالى جريمة قاتلى
وَكَمْ مرَّتِ النُّعْمَى عَلَىَّ بسِيمَةً فأبعدها عنى وضيع الوسائل
وَرَفْضُ لئيمٍ كاشِحِ الصدر حاقد نَوَالِىَ أرزاق بِهِمَّةِ عامل
بَكَتْ بلدتى حزناً عَلَىّ وحسرة وأفجع ما أبصرتُ دَمْعُ المنازل
وكم ندبَتْنِى فى حِمَاها ضريرة تنوح بصوتٍ هَالِعِ الوقع ذابل
وشيخٍ أَبِىِّ الدمع ، إلَّا بمحنتى وفى ثوبه مجد الكرام الأماثل
هما والداى الصالحان كلاهما عَلَى شِدَّةِ الْبَأْسَاءِ موئل سائل
فيارَبِّ ، إمَّا نعمة من حَصَافَتِى وَإِمَّا حياة فى حماقة جاهل

مرّت السنون بطاء على الشاعر ، والظلام الرهيب يغشّى حياته ، ومحنته تستفحل على مر الأيام ، فالمخدر يستبد به ليصوح شبابه ، ويهدم كيانه ، وهو فى غمرة هذه الأحداث العارمة هامد الإرادة خائر

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

العزيمة ، يلتمس المخرج فلا يجده ، فكأنما سورت حياته بأسوار من الفولاذ ، حجبت منه بهجة الصبا ، وعجب الشباب لتسلمه إلى وحشة الأسى ومحراب الدموع .

ولم يكن الديب وحده فى هذه الفترة هو الضحية للمخدر الأبيض ، وإنما أُولع به طائفة غير قليلة من أدباء مصر وسراتها ، فلقد شاء الاستعمار أن يرمى مصر بهذا الشر الوبيل ، ليصرف القوم فيها عن الحياة الجادة اليقظة إلى حياة أخرى غافية ، يخيّل فيها الوهم الخادع سعادة غامرة ، ورضاً مكذوباً ، فكم من ثرى فى مصر قد أكل المخدر ثروته واستلب منه عقله ، وكم من عزيز قد ذل فى تلك الغاشية ، فمات من هول الكارثة ، أو انتحر حتى يسدل الستار على مأساته الأليمة ، ولم يعد خافياً على أحد حينذاك ، أن الديب كان ممتحناً بالمخدر ، وأنه أخذ فى الإنحدار إلى الهاوية ، فقد استشرى به الداء وتمكن منه الإدمان ، فما كان يرى إلا زائغ البصر ، ثقيل الخطى ، يسير فى الطريق بضع دقائق ، ليقف ساعات مستنداً إلى جدار ، محدقاً فى المارة بنظراته المفعمة بذلك الذهول الحالم ، تلك النظرات التى أشاع فيها « تأثير الكوكايين » بريقاً ساجياً يفيض بالسعادة المصنوعة والرضا الذليل .

لقد كان يفتح ناظريه وبهما وهج ، وفيهما تألق ، ولكنه

www.alkottob.com

لا يكاد يرى بهما حتى أرنبة أنفه ، إنه يحد النظر ولكن لا إلى هدف ، بل ليرمى به إلى ذلك الأفق البعيد .. حيث يحلّق فى « مثل أطياف الجنة ! ! » كما كان يحدثنى عن إحساسه وهو فى أوج النشوة .

ولم يكن عجيباً أن يصير به هذا الأمر إلى النهاية المرتقبة لكل من يستسلم لهذا الداء ، فقد كان فى النهاية صيداً لرجال الشرطة ، حيث سيق إلى « التحقيق » فى زمرة الدهماء والمجرمين ، وهناك فى ساحة القضاء وجد السجن ينتظره ، فدفع به إليه ليقضى بين جدرانه الرهيبة فترة من عمره ، وليسكب فى « عنابرها » ما تبقى له من شباب .

ولم يضق الشاعر كثيراً « بمنزله الجديد » ، بل لعله لم يجد فرقاً بين ما حرمه المجتمع منه و بين ما دفعت به العدالة إليه ، لأنه وجد فى سجنه « غذاء وكساء » كانا قد عزّا عليه وهو فى « عالم الحرية » وكل ما جد من أمره أنه باع « حرية التشرد بقيد الإستقرار » فهو الرابح إذن فى صفقته تلك على كل حال !! .

ولهذا وحده ، نراه مطمئناً إلى سجنه راضياً عنه ، غير متبرم به أو ساخط عليه ، لأنه ـ كما حدثنى ـ قد وجد فيه الملجأ بعد تطواف ، والهدوء بعد طول قلق واضطراب ! .

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

وقد استطاع بذكائه أن يعرف الطريق إلى قلب « سعادة مأمور السجن » وقد كان رجلا رقيق الحس ، يحب الأدب ويحنو على الأدباء فتوثقت بينهما عرى الصداقة والألفة فنال الشاعر من عطفه الشيء الكثير .

وكما أن « القفص » لا يُنسى « البلبل » تغاريده ، كذلك السجن ما أنسى الديب ألحانه وأناشيده ؛ فقد كان السجناء يغدون من حوله ويروحون ، فريق منهم كان يقتله الحزن اليائس ، وفريق آخر كان يحيا فى الأمل ويعيش بالرجاء ، وفى المساء حينما يجتمع الفريقان « فى العنبر المتجهم » يتحلّقون حول الديب ليمسح بحديثه الممتع على مواجع المحزونين اليائسين ، وليضاعف النشوة فى قلوب المؤملين المرتقبين ، فما يزال يمتعهم بنكاته العميقة المثيرة حتى يستغرق هؤلاء وأولئك فى ضحك طويل يصعب معه أن يميز فى هذا الجمع الكثير المؤمل من اليائس ، والحزين من الطروب .

فإذا ما أسلم السجناء أجفانهم للكرى المُفزّع ، وقلوبهم للاحلام المضطربة ، تجمع الديب وحده على « برشه » وتحت غطائه الخشن ، يقظ القلب والعينين جميعاً : ولعله كان يفكر فيما صار إليه ، أو لعله يوازن بين ماضيه وحاضره ، إذ أنه يحس فى أعماقه أن المحنة وحدها هى التى جمعته إلى هذا الخليط المتنافر من البشرية ، وأنه غريب فيهم

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

كصالح فى ثمود ، وكأنه بينهم نغمة مشجية وسط أنغام كلها نشاز وصخب .

ولكنه ـ مع ذلك ـ كان يستجيب إلى هواتف انفعالاته فيصوغها لنا غزلاً تمتزج فيه الرقة بالحرمان ، أو وصفاً رائعاً لما عليه السجناء من شناعة المظهر ورهيب المخبر .

ولنستمع إليه حين يقول :

له بفؤادى لَذَّةٌ وَوَجِيبُ   وفيه لقلبى بَلْسَمٌ وطبيب
ملأتُ الدنيا هوًى وَصَبَابَةً   وَهَلْهَلْتُ فيه الحُبَّ وهو جَنِيبُ
وَمَا صَدَّعَنِّى أَوْ لَوَى دون حاجتى   وَلَـكِنَّ أخلاق الجميل غَرِيب
تُهَدْهِدُهُ كالطفل إنْ أَنَّ أَوْ شَكَا   وَيُغْرِى بك الأشجان وهو طروب
وإخوانِ سجنٍ قَبَّحَتْ من وجوههم   هموم تَوَالَى دائماً وخطوب
فمنظرهم أضحوكة للباسهم   وَمَخْبَرُهُمْ فى الحادثات رهيب
لقد كنتُ فيهم « يوسف » السجن صالحاً   أُفَسِّرُ أحلاماً لهم وأصيب

وقد كان من بين ذلك الخليط الذى صحبه الديب فى سجنه ، سجين أعمى ، قد ضاق بالسجن ، و برم بالقيد ، فلم يخضع كغيره للنظام المتبع هناك ، وللحراس الغلاظ « أساليبهم الخاصة » فى علاج مثل هذا

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

الأمر ، فقد ألحقوا العنت الشديد بهذا الأعمى ، وأذاقوه مر العذاب ، وكان لهذا التنكيل الشديد أثره القوى فى الشاعر العطوف قد مسَّ منه الشغاف ، وحرك فيه العطف والإشفاق ، وهاهو ذا يتوجه إلى الأعمى بقوله :

سجنوا عليكَ الكون ، أَمْ سَجَنُوكا
لو أنصفوا فى ظلمهم قتلوكا !

تَخِذُوا عذابك، أو نعيمك شهوة ... وتقاسموك ، كأَنَّهُمْ خلقوكا !
نَمْ ياضرير ، ففى عَماكَ سعادة ... ألاَّ ترى عيناك مَنْ ظَلموكا
أَلاَّ ترى أَثَرَ الطُّغاة وجورهم ... عرضاً ذبيحاً ، أَوْ دماً مَسْفُوكا
أَلاَّ ترى الدنيا شخوص رواية ... ضَلَّتْ .. وَضَلُّوا شرعة وسلوكا
صادوك ، فاتخذوك لعبة ملجأ ... كم عذَّبوكَ به وكم ضربوكا
لم يرحموك على عماك ، كأنهم ... حسبوا العذاب على العمى يهنيكا
فى « الغرب » كل اللاجئين تخالهم ... بين النعيم المستقر ملوكا
وهم بمصر معذبون أذلة ... ملكوا مِنَ الرِّقِّ المهين صُكُوكا
يَحْيَوْنَ فى ظل الأسار وضيقه ... بأشد من عيش السجون حُلوكا
ثاروا وثاروا..والحكومة لَمْ تَزِدْ ... إلَّا ظنونا حولهم وشكوكا ..!
وهم كباقى الشعب فى بأسائه ... ظِلُّ الحُنُوِّ به غداً متروكا

www.alkottob.com

حقاً إن حياة الشاعر كانت سلسلة من الضربات المتلاحقة ، وكان يطالعه من آفاقها زحام من محنها العارمة القوية ، فما يكاد يقف فى ساحتها على قدميه إلا لينكفىء بها على وجهه ، حيث يجد الشدائد تنتظره ، والبأساء تهرع إليه ! ولئن أبطأت عليه شدّة أو قعدت عنه بأساء ، تراه هو نفسه يسعى جاهداً إليهما ، وكأنه فى ذلك يفتقد حبيباً أثيراً لديه ، أو يلتمس سعادة أشاحت عنه وتحولت إلى سواه . . !

لقد كنت أراه يحن إلى الدمع ، ويستريح إلى الأسى حتى خيل إلى أحيانا أن عينيه لم تُخلقا إلا لسكب العبرات ، وأن قلبه الكبير لم يضم إلا وجيع الزفرات ؛ إنه قد استعدى عليه أحداث الزمن ، وأغرى به كوارث الأيام ، لأنه ما كان يألف من الليالى إلا جانبها العابس المتجهم ، أما جانبها المشرق البهيج فإنه ـ كما حدثنى ـ لا يثير فيه الرغبة لِأَنْ يملأ من ضوئه عينيه ، أو يفتح لجماله وروعته قلبه ؛ ذلك أنه لا يثبت طويلا أمام ناظريه فهو قلب مختلف أبداً ، والشاعر لا يقنع منه بما قنع به غيره ، ولا يطيق أن يسعد بما يسطع تارة ، ليقتم أخرى ، وربما يحلو حينا ليمر أحيانا .

ولعل منطقة هذا ، هو التعليل الوحيد لذلك الفشل الذريع الذى مُنى به فى حياته الباكرة ، أو لعلها غضبة الفنان إذ يُراد منه أن يقنع بما تجود به الحياة ، وأن يحتمل جهامتها ويصبر على جفوتها فى الوقت

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

الذى يرى بعينيه الجاهل القدم مطمئن العيش ، متجدد السعادة والنعيم.

لقد ظل الديب يضرب فى التيه ، و يعدو لاهثاً خلف وهم السّراب ، وكان كلما أجهده اللغوب وأظمأته الهجرة ، هرع إلى الكأس المحرمة ليطفىء بها ظمأه ، أو جنح إلى « المخدر » لينسى به ما كان يجد من عناء ونصب ، ولكن المسكين كان كلما شرب أظمأته كأسه ، وكلما تعاطى « وجبة » مما كان قد جنح إليه أذبله ذلك وهد من كيانه، فلما اشتدت به العلة وأمرضه الإدمان ، وأخذ « الوهج » ينطفىء من مقلتيه ، حنا عليه بعض الأخيار من محبيه فحملوه إلى «مستشفى المجاذيب» بدعوى أنه مريض ليعالج هناك علاجاً يبغض إليه «الكوكايين» و يعيد إليه الحياة من جديد ، وقد تم لهم ما أرادوا فجزاهم الله عن الديب خيراً إن كانوا أحياء ، وتغمدهم برحمته إن كانوا قد لحقوا به .

وأحب للقارىء أن يستيقن بأن الديب لم يكن مجنوناً بل لم يكن مهيئاً بفطرته لأن يكونه ، اللهم إلا إذا كانت « العبقرية » تسمى فى بعض أطوارها «جنوناً» ، أو كان الذكاء يُنبذ فى بعض وثباته بالشرود والانحراف ، ولكن الذى أحب أن يستيقنه القارىء أن الشاعر كان عبقريا أنصع ما تكون العبقرية ، وذكيا موهوبا كألمع ما تكون الموهبة و يُعرف الذكاء .

ولا أزال أذكر حديثه إلىّ عن شعوره وذكرياته فى « الخانكا »

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

فلقد كان حديثاً عجيباً ، وكان بودى أن أمتع به القراء ، لأنه من الشعر المنثور ، أو هو نوع من الخيال العبقرى الذى أتيح للديب ، ولئن كان المقام يضيق بذلك ، إلا أننى أسوق إليهم بعضه ، على أمل أن نلتقى مع الديب حين أعرضه للقراء فَكِهاً خفيف الروح .

لقد رأى الديب فى الخانكا داراً مجنونة .. بنيانا .. ونُزَلاء .. وأطباء .. وممرضين ، وحدائقها الغناء أيضاً قد طاف عليها طائف من الجنون ، فوردها لا يشبه الورد فى غيرها من الحدائق .. فهو فيها أحمر قانى الحمرة .. ومتفتح تفتحاً لم يره لمثله .. والديب إذا شم منها وردة لا يجد لها أريجا وشذى كما يجد لغيرها .!

وإن خير ما أتحف به القراء فى هذا المقام هو أن أدع الديب يتحدث إليهم بنفسه من غرفته بالمستشفى :

رعاكَ اللهُ « مارستان » مصر ... فإنَّكَ دارُ عقل لا جنون
حَوَيْتَ الصابرين على البلايا ... وَمَنْ نَزَلُوا على حكم السنين
ومن هبطوا بهم من صَرْحِ عِزٍّ ... إلى أغلال إذلال وَهُون
تراهم خائفين .. فإن أُثِيرُوا ... بِمَهْزَلَةٍ فَآسادُ العَرِين
وإن سئلوا عن الأسرار كانوا ... كمن أخذوا عن الروح الأمين
ورب مهرج منهم بقولٍ ... يُرِيكَ الجد فى ثوب المجون

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

فإن يغضب بِقَارِصَةٍ تباكى ... فأبكى العين بالدمع الهَتُون
يعذبه عبادك كل يوم ... وَيَصْلَى الضَّيْمَ حينا بعد حين
وكم فى مصر من غِرٍّ غَبِيٍّ ... تمتع بالجميل وبالثمين
ولو عدلوا لأمسى «خانكياً» ... يُعَذّب بالشمال وباليمين

www.alkottob.com

الفصل الثالث

الديب مع مشاكله
وفي ليالي العيد

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

والديب فى حياته الجديدة تواجهـه مشكلتان ، كان لهما الأثر العميق فى إنتاجه الأدبى الرائع ، فقد تلون بهما شعره ، وصدرت عنهما أخيلته ، لأنه ما كان يستطيع أن يحيد بفنه عما رسمته له الحياة فى نطاق تلك الدائرة التى سوّرت مصيره ، وأحاطت بحاضره إحاطة السـوار بالمعصم ، فلم يكن ثمة فى وسعه أن يتجاهل حكمها أو يتمرد على سلطانها الغلاب ، ولهذا جاء شعره معبراً عن كليهما تعبيراً صادقاً بريئاً من الصنعة خالياً من التعمل الممجوج .

* * *

أما أولاهما ، فإنها مشكلة العمل الذى يكفل له الحياة التى تليق بمثله ، فقد حاول أن يعيش من كسب يديه بعد مايئس من العيش فى وارف فنه وإنتاجه ، ولـكنه حين وجد الفشل ينتظره فى كل محاولة يبذلها تضاعف فيه اليأس واستولى عليه الجزع والهلع ، فهؤلاء أصحاب الأعمال يرتابون فى أمره ولا يطمئنون إليه ، وحجتهم فى ذلك أنه كان سجيناً فى ماضى حياته ، والسجين لايؤتمن على عمل ، ولا يصلح أن يكون أهلا للثقة ، ولا موضعاً للاطمئنان ..! ، وهذه دور الحـكومة أيضاً لاتترفق بالشاعر المنكوب ، ولا ترى أن تعفيه ـ حين يتقدم إليها ـ من « المؤهل وصحيفة السوابق » أو كما كان يسميها « سعادة

www.alkottob.com

مدير المستخدمين» للديب ، «مسوغات التعيين» ، ليؤكد أن «التعيين بدونها مستحيل» أو هو ضرب من الخيال ، فإذا يئس الشاعر من رحمة «الحكومة» ممثلة فى شخص مدير المستخدمين حينذاك هرع إلىَّ بالمقهى لينشدنى :

قالُوا الْمُؤَهِّلُ ..! قُلْتُ الجوع والْعَطَلُ
يَاأُمَّةً عَزَّ فيها النَّدْبُ وَالرَّجُلُ

ثم ماذا يرى الديب بعد كل هذا ؟ إنه يرى معجبين من حوله .. إنهم زحام من الناس يطوفون حوله ، ويتجاذبونه إليهم وكلهم يتوق إلى الظفر به ، والجلوس إليه عساه ينشدهم ماتستمتع به نفوسهم من شعره الذى ينزف دماً من جراحه ، ويسيل - وهم يعلمون أو لايعلمون - دموعاً حرَّى من فاجع مآسيه ..! ، حتى إذا ظفرت به طائفة وتحلقت حوله اتجهت إليه فيما يشبه الضراعة أن ينشدهم هذه القصيدة أو تلك ، أو يقص على أسماعهم هذا الحادث أو ذاك ، وما يزال المسكين يستجيب إلى رغباتهم تلك فى ألم مرير وحزن باسم حتى إذا مارأى أن بعضاً من هؤلاء قهقه من شعر حزين ! وبعضا آخر بكى من قصيد ضاحك . ! عندئذ يستيقن أنه قد تحدث إلى من لايقدرونه قدره ، وأنه قد امتهن شعره ، وأرخص مع هؤلاء الجهلاء فنه ، فإذا تهيأ للانصراف تصايحوا به ألا يذهب عنهم لأنهم فى شوق إلى سماع

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

الكثير من أدبه ، وربما يجذبه أحدهم من طرف ردائه القديم البالى ، وعندئذ يجلس إليهم مرغماً على كره منه ، ذلك لأنه يخشى على ثوبه الذى لايملك غيره أن تمتد إليه يد غليظة فتمزقه أو تنال منه ، وقد كان إشفاق الديب على مايرتدى مضرب الأمثال ومجال الفكاهة بين أصدقائه ومحبيه :

* * *

وهكذا يستأنف الشاعر الحديث معهم وكلهم به حفى وإلى إنشاده مقبل ، ولكنهم على بالغ أنسهم به ما كانوا يزيدون على أن يقدموا إليه أكواب الشاى ولفائف التبغ وهم لايعلمون أنه جائع يكاد يأكله الطوى ، وتعب يوشك أن يسقط إعياء . !

وكثيراً ماحدثنى بمقارنة طريفة كان يعقدها بين هؤلاء المعجبين به ، وبين رجال الأعمال الذين كانوا يصدفون عنه ، ويضنون عليه بالعمل، وهذه المقارنة على طرافتها لاتخلو فى جوهرها من عدالة ومنطق، ذلك أن أصحاب الأعمال إنما ينصرفون عن الديب لأنهم لن يجنوا من ورائه ربحاً توجهت أطماعهم إليه ووهبوا أنفسهم له ، ولئن كان هذا عدلا من جانب أصحاب العمل ، لاينبغى للديب أن يناقشه أو يعترض عليه ، فإن العدل كل العدل ـ فيما يبدو ـ أن يربح الشاعر من فنه الذى كان متعة طاغية لأولئك السمار والمعجبين ، فلقد عوّقوه عن السعى

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

واستفادوا من حديثه الشيء الكثير ، ولقد جنوا من ذلك ربحاً وفره لهم قصصه الجذاب ، وفنه الممتع الأخاذ ، فما باله وقد خرج من تلك الصفقة صفر اليدين خاسر السعى ، إنه مازاد على أن نكأ بشعره جراحه المندملة وأثار فى صدره مرير الذكريات . !

وإن أحاسيسه تلك لتتوافد أمام عينيك منكسه ملتاعة فى مواكبها الحزينة ، ومآتمها الباكية حين تقرأ له قوله :

لو أستطيع البكا يا أيُّها الطَّلَلُ ..
بكيتُ ، حتى شَكَتْ من دمعىَ الْمُقَلُ

أرى الحوادث آسَادًا مُقذَّفَةً عليَّ دون الورى تَعْدُو وتقتتل
فكمْ تَصَوَّحَ عُودِى بعد نُضْرتِه وكمْ خَبَافى دَيَاجِى عُمْرِىَ الأمل
وكم دَعَتْ لى أُمّى وهى باكية وكم دعا لى أبى يَقْظَانَ يبتهل
وأجلس الليل فى صحبى أسامرهم وكلهم بِمَجَالِى رِقَّتى حَفِلُ
حتى إذا سلموا لِلْمَوْدِ وانصرفوا
سَرَيْتُ جوعانَ يَفْرِى عزمىَ الْكَلَلُ

جوعان .. يامِحْنَةً أَرْبَتْ على جَلَدِى كأنَّ ليلى بيوم البعث مُتَّصل !
كأنّ حظى رَحيقُ الدهر يشربها بِكْرًا مُعَتَّقَةً فالدهر بى ثَمِلُ
فإن تطالبت عيشى مِتُّ من كمَدٍ وإن تطلبت حَيْنِي يَبْعُدُ الأجل

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

وتجد أكثر من هذا أيضاً حين تسمعه يقول :

طلعَ الصباحُ على مَجَالِي فضةٍ وَمَطَارِفٍ من عسجد تتألَّقُ
واستأنف الناس الحياة ، فعامل جَمّ النشاط ، وعاطل يتحرق
وأنا أمام الله يوم وعيده وحدى ، فجسمى بالجحيم يمزق
ونسخت إبليس اللعين بمحنتى فبكل آونَةٍ هلاك مُحْدِق
أخلقتنى يارب أم أنا واهم ؟ أنا ما خُلِقْتُ لأننى لاأُرْزَق !

* * *

خرج الديب من « الخانكا » بعد علاج طويل ، صحيح البدن جم النشاط ، فقد زال عنه ما كان يجد من انهيار فى الأعصاب ، وتبلّد فى الجوارح ، وتلاشى من حياته ذلك الشبح المخيف الذى كان يُسد عليه الأفق ، ويثير حوله الزوابع والأعاصير ، لأنه انصرف إلى الأبد عن تعاطى « المسحوق الأبيض » ولم يعد فى نفسه منه إلا ذكريات سود تعاوده مرارتها كلما التقى « بزميل مبتلى » أو شاهد فى الطريق أحد الضحايا المساكين.

لقد عاد إلى الحياة بعد ما أوشك أن يودعها ، ولبس الصحة جديدة بعدما أبلاه المرض ، ولكنه وقد عرفهما وابتهج بهما لم يستطع أن يفجّر منهما معين السعادة لينهل منه فى قناعة وقبول .! ، لأن نفسه

www.alkottob.com

لم تكن عامرة بالرضا ولا مؤمنة بالقناعة فكأنه كان يريد أن ينال حظاً من السعادة يماثل مانال من حظ من الموهبة ، وأن يصيب نصيبا من الدنيا كِفاء ماقدم لها من شعر و بيان ، وما أرسل فى جنباتها من سحر وجمال ! .

* * *

إنّ دمه كما يقول « دم أكفاء الحياة » لادم الضعفاء والعاجزين ، و إنه ليرمى بنظرته حيث المحيط الضخم لاحيث الطلّ والندى ، وما دام هذا دمه ، وتلك فى الحياة نظرته فلماذا يفجمه الدهر بمنطق ظالم عسوف ؟ ، فهو إذ يكسو « أوشاب الكنانة عسجداً » يُعرّيه من المجد و يرميه بعيش ضيق خشن ! .

ولم يكن هذا كل ما يُحنق الشاعر فحسب ، وإنما هنالك الناس أيضا يلاحقونه و يتجنون عليه ، فهم يثيرون حوله الشبهات و يتهامسون فى كيد بماضيه الذى يَفرق منه و يكره أن يذكّره به أحد ، والناس حين يخوضون فى محنة الديب أو يتناولون ماضيه الأسود يَبدون كالملائكة الأطهار إذ تستهجن خطيئة شيطان مريد ! ، لأن الطباع البشرية قد يحلو لها أحيانا ألا تنسى الزلة لممتحن ضعيف ، فالنسيان قد يفوّت عليها أن تظهر أمام الغير أنها تحارب الرذيلة .. وتدعو إلى الفضيلة .! .

وكان طبيعيا ألا يقف الديب أمام هذا الهمس الظالم مكتوف اليدين عاجز الحيلة ، ورحم الله المتنبى إذ يقول :

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

واحتمالُ الأذى ، ورؤية جانيه   ه غِذاءٌ تَضْوَى به الأجسام

إنه لم يصبر على الأذى ، ولم يرض أن يصير هدفاً لألسنتهم ، فأرعد وتوعد وأمضى إليهم « سهم ظامه مسدداً » ، وهكذا آذن الجميعَ بحرب تجد أوارها فى حرارة قوله :

شكوتُ إلى أَنْ قِيلَ قد ذَلَّ واجتدَى
وأصبحتُ لاصوتاً أُرجَّى ولا صَدَى !!

من الظلم تحطيم الحُسام لأنه   بكل جهاد فى الحياة تجردا
وقطع يد فى الله والحق حطمتْ   سُجوناً، وفكت من أذاها مُصَفَّدا!
وحرمان موهوب من اليُسر بينما   كَسَا اليسرُ أَوْشَابَ الكنانة عسجدا
شكوتُ ، وما شكواى ضعف وذلة   فلستُ بِمُسْتَجْدٍ ولا طالباً يَدَا
ولكننى أُفْحِمْتُ ظاماً بمنطق   من الدهر لم تبلغ غَبَاوتُهُ مَدَى
دمى دم أَكْفَاء الحياة ونظرتى   بها للمحيط الضخم لا الطَّلِّ والنَّدى
أُجَدِّدُ للدنيا نشاطى وهمتى   فتَنْفَحُنِى الدنيا شقاءً مجددا
تُسَوِّلُ لى نفسى المنون لأننى   أرى خير ما يُنْجِى من العالمَ الردى
وَشِدْتُ كما شاد النبيون شرعة !   تَنَزَّل فيها الوحى شعراً مرددا
وقلتُ، وقالَ الناسُ ، لم يَبْقِ قولهُم   بياناً ولا سحراً ، فأَرْبَيْتُ مُنْشِدَا
يميناً لئن لم يؤمنوا بقضيتى   لأمضى إليهم سهم ظامى مسددا

www.alkottob.com

سأرقب عدلاً من قضاتى فإن أبوا ... أبتْ قوتى فى الهجو أن تتقيدا

* * *

ولقد طرق الديب أبواب العمل فما انفتح له منها باب حتى ضاقت به أوجه الرزق أو كادت ، والسر فى هذا أمران كان لهما خطرهما فى حياة الشاعر : أولهما أن سجنه قد نفر منه القلوب وصرف عنه العطف ، فما عاد يثق به أحد حتى يوليه عملا ؛ وثانيهما أنه كان إذا أقبل على عمل عالجه بروح الفنان على حين أن العمل يتطلب يداً منتجة تعمل لافناناً يخيل .

وهكذا ظل الشاعر فى حياته يسير من إخفاق إلى إخفاق ، ويودع فشلا ليستقبل فشلا آخر أشد وأنكى .

وأخيراً عطف عليه صديق صحفى ، فألحقه « مصححاً » فى مجلة لقاء قروش يتقاضاها كل أسبوع ، وقد أراد هذا الصحفى الفاضل أن يبعث فى الديب الأمل ، وأن ينزل به من عالم الرؤى والخيال إلى حيث يعيش الناس ، فوعظه مرة أن يلتمس الحظ على ضوء الأمل ، وقد ألهمت الشاعر هذه الجملة أن يهتف بتلك القصيدة الرائعة ، وهى فى معانيها نسق جديد من روح الديب :

أَعُودُ إلى الصِّبَا بعد اكْتِهَالِى ... فقد أَوْفَى على الدنيـا نَوالى !

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

تفيض لى الصخور أسىً وعطفا ... ويُغْفِلُ محنتى قومى وآلى !
فليتَ رجال أوطانى صخوراً ... وليتَ الصخر قُدَّ من الرجال
أطَعْتكَ « مصطفى » فكتمتُ سهمى ... فما أشكو من المِحَنِ الثِّقَال
رحمتَ خصاصتى وعرفتَ قدرى ... وأقصيتَ الحوادث عن مجالى
فلم أيْأسْ وقد أذكيتَ جمْرى ... بآمال أشَمّ من الجبال
وأقتلُ للحجا والشعر شكوى ... يَبِينُ خِلالها ذُلّ السؤال
أنا أغنى امرىء بدمى وعرضى ... وإنْ جُردتُ من جاهٍ ومال
إذا أنا لم أنل بالعلم حظى ... سأصدر عنه بالسمر العوالى
فإن مدت يد لأذاى يوماً ... سأقطعها جريئاً لا أُبالى

* * *

والجديد فى قصيدته تلك ، أنه أخذ يرتفع فيها بكبريائه عن مواطن السقوط والهوان ، وحاول أن يربأ بعبقريته عن ذل السؤال ومهانة الكُدية ، واتجهت نفسه إلى أن يلتمس العيش فى رحاب العزة ومجالى الأباء ، وقد صح منه العزم على تغيير أسلوبه فى الحياة ، ذلك الأسلوب الذى أطلق عليه الألسنة وأثار حوله الشائعات ، وكان سبيله إلى ذلك أن يطلب العيش الكريم بجلال العلم وأصيل الموهبة ، فإذا تأبّى عليه

www.alkottob.com

جرد لنيله « سمر العوالى » وحشد للظفر به الكفاح الذى لا يرحم ؛ أما موقفه الجديد مع الناس فهو القصاص العادل الذى تقره الطبيعة ويتواصى به المجتمع جيلا إثر جيل .

حقاً ، إنها لمحاولة نبيلة انفعل بها وجدانه ففاض بها لسانه ، ولكن الجديد فى جديده : أنه قنع ـ رحمه الله ـ أن تتخذ هذه المحاولة فى حياته لوناً واحداً لا يتغير ، وهى أن تكون فحسب : إرادةٌ فى خيال وأُمنية فى أقوال .. ! ! .

* * *

أما مشكلته الثانية ، فهى أصدقاؤه الذين صحبهم وعاش معهم حتى موته ، وهم فى تقديره ينقسمون إلى قسمين : فريق كان دونه فى الموهبة وخفة الروح ، بل هو إلى العامة والدهماء أقرب ، لهذا نجده معه مجاملا لا يغضب فإن هو أعانه على بعض أمره رضى عنه كل الرضا ومحضه الود خالصاً ، وإن هو بَخِل عليه أو أعرض عنه استعلى عن ذمه واستكبر أن يهجوه ، فما نكاد نجد له قصيدة هجاء فى مغمور أو جاهل إلا فى النذر اليسير ، حين يطيب له أن يلهو بذلك أو يعبث ، وسنورد طرفاً من ذلك فى موضعه من حياة الديب ؛ أما الفريق الآخر ، فهو ذلك الذى اختصه الشاعر بفيض من شعره ، فقد جند المسكين جانباً من حياته فى صراع وملاحات مع هذه الصفوة المختارة

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

وآذنهم بحرب لا تخبو نارها ولا يَنجلى غبارها ، ولئن كانت الحروب لا تُعقب إلا الحسرة والألم فحرب الديب لم تعقبه إلا الرضا والتشفى من مصارع أعدائه الأصدقاء . . فقد كان يتنفس كلما أبصر صديقًا جريحًا أو رآى صاحباً موجعاً ؛ لأنه حينئذ يؤمن أنه قوى باطش ، فلم يَعـد أمامهم على الأقل ذلك الواهن الضعيف الذى كانوا يتوهمون .. !! .

ويتميز هذا الصنف من الأصدقاء بمواهب كفلت له النجاح فى الحياة العامة ، ويسرت له العيش الهنىء الذى كان يهفو إلى مثله الشاعر البائس ؛ فمن بينهم الموظف الكبير والصحفى القدير والأديب الذى يتلقّف الناس أدبه فى لهفة وسرور ، وصاحبنا ـ غفر الله له ـ ما كان يؤمن بالنجاح فى الحياة إلا أن يكون وافداً من آفاق الشعر ونابعاً من مَعين العبقرية الدفاق .. !! ، فأما هذا التوفيق الذى يراه لأمثال هؤلاء فهو فى رأيه توفيق مصنوع ونجاح زائف ، ومن ثم فإن الاعتراف به خطيئة من المجتمع ، وانحراف ظالم عن طبائع الأشياء .

* * *

والحق أن نفراً من هؤلاء كان يحلُو له أن يرى الديب مهلهل السمعة رثّ الكرامة ، فهم يكيدون له ما وسعهم الكيد ، وينشرون

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

ماضيه الأسود كلما أمكنتهم الفرصة ، ويتندرون بسوء عيشه فى كل مجلس أوناد ؛ ذلك أن كل ما نقموا منه أنه إذا جلس معهم فى نفر من عِلْيه القوم تخطفهم الأنظار إليه من دونهم جميعاً ، فهو وحده فى هذا الجمع ـ على رثاثة حاله ـ النجم المتألق والمتحدث الذى لا يُمل له حديث ، وعندئذ يتحرك فى قلوبهم شىء من الحسد الذى ينشأ عادة بين الأقران ، أو فيما بين أصحاب الحرفة الواحدة ، فيستكثرون عليه وهو المجرّح فى ماضيه أن يُحملهم إلى جواره ، أو يُهوِّن أمرهم فى نظر هؤلاء السادة القادرين .

* * *

وأقسى أيام كانت تمر على الشاعر فى القاهرة هى أيام الأعياد ، فإنها فى الأحياء الشعبية التى يألفها الديب مظهر رائع من مظاهر التديّن أو العادة ، فالفقير الذى لا يعرف الابتسام طوال العام يعرفه أو يتكلفه فى يوم العيد ، والعامل المكدود الذى لا يكاد يجد قوت يومه إلا فى عسر ومشقة يدخر قروشاً تدخل البهجة على صِغاره وتحبب إليهم هذا اليوم المقدس السعيد ؛ أما الديب فما كان يعرف ـ على ما عرف من آلام ـ معنى الألم العاصف إلا فى يوم العيد ، فهو إذا لقى جاره « الكناس » وجده يرتدى ملبساً نظيفاً وحذاء لامعاً ، وحين يقبل إليه جاره بالعيد يرى على فمه ابتسامة الرضا والبهجة ومن حوله صغاره

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

يتواثبون فى خفة ونشاط وكأنهم صِغار الطير قد استخفها جمال العيد ، وأسكرها أريج المرح فى اليوم السعيد .

يشهد الشاعر كل هذا وهو ذاهل عن نفسه ، ذاهب عن وجوده ، فإذا تلفّت إلى حالته وجدها كما عهدها من قبل : رثاثة و إفلاس وتجهم وأحزان .! وكأن العيد لم يعرف موضعه فى أيام حياته النكدة فهو يطوى الزمن فى عبوس و إطراق ، وتطويه الليالى بأحداثها النكر ومآسيها الدامية ، إنه يشم رائحة اللحم فى العيد وهو جائع يكاد يسقط إعياء .! ، ويلمح الابتسام يرفّ على الشفاه وهو دامع يوشك أن يذوب فى دمعه ، حتى إذا استبد به الطوى ، وألحّ عليه الجوع ذهب يلتمس لنفسه طعاماً أىّ طعام ، فيذرع فى سبيله الأزقة والطرقات فلا يجد منه شيئاً ، لأن الحوانيت كلها مقفلة فى ذلك اليوم ، والمطاعم العامة جميعها موصده فى العيد ، فإذا ذكر مالهذا اليوم المبارك من بِشر وسماحة حاول جاهداً أن يصيب حظه من ذلك كسائر الناس من المسلمين ، وكانت محاولته تنتهى به دائماً ألاّ يجد فيه إلا الجوع ينتظره والمسغبة تعتصر أمعاءه ، ومن ثم يستسلم للأسى ، ويركن للحزن ، ليستقبل العيد بقوله :

عِيدٌ تُطَالِعُنِى والعيش منكود ... لَأَنْتَ يوم الأسى والحزن يَاعِيدُ!

يُجَدِّدُ الناسُ من لبس ومن فرح ... وعندنا للأسى والهم تجديد

المسلمون وقد عشنا خيارهمو ... كأننا بينهم فى عيدهم هُودُ

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

لو أنصف الناس ماضحوا بشاتهمو بل كان قُرْبَانَهُمْ لِلْمُعْتَفِي جُود

وقد يستقبل العيد فى مثل ثورة الذليل وصرخة المكبوت الذى لا يملك حيلة ولا يجد مفزعاً فيقول :

رِيعَ الحَبِيسُ ببلواه فما جزعَا والجرح كل مَدى إبْلَالِهِ وسعا !
حَمَلْتُهَا طعناتٍ لَوْ بواحدةٍ منها مُنِى «هَمَلَايَا» مَالَ وانصَدَعَا
وَنَافِسِينَ علىَّ الشعر فى حسد وما سوى الشعر فى حَرْبِى لهم شفعا
وقاطعين سبيل العيش أسلكه وَقَطْرُ غَيْثِى بقومى ـ بينهم ـ هَمَعَا
يَاذَبِحِى الشاه فى أفراح عيدكمو هَلاَّ بعثتم لنا من لحمها قِطَعا
يالابسين جديداً من ثيابكمو هلا بعثتم لنا المَتْرُوكَ والرقعا
رُدُّوا علينا شبابا كَمْ دَجَى ودجى وليل شيبكمو باليسر قد سطعا
رَمَيْتُمُونِى بأخلاقٍ مُجرّحةٍ حتى رأيتُ مقامى بينكم وضعا

والشاعر حين يعصف به الألم ، ويستبد به الحنين إلى رؤية أهله فى مثل هذا اليوم الضاحك عسى أن يجد لديهم لونا من السعادة التى يشعر بها كل من حوله ، عندئذ يركب إليهم أجنحة الشعر ، ويطير إلى « كمشيش » على متن الخيال ، ولهذا نسمعه ينشد :

تَغَيَّرْتِ يادُنْيَا .. فأينَ مَضَى أهلى؟ وأين ديار لم تَذُقْ نُوَبَ المَحْلِ؟

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

وأين جواميس سِمَانٌ حَلُوبَةٌ وأين جِمَالٌ لَاتُرَاعُ من الحَمل ؟
وأين حَمامات هَتَفْنَ عشيــة تنُوحُ عَلَى إلْفٍ، وتبكى على شَمْلِ؟
سَرَيْتُ فمضيتُ السُّرَى فى مسرة وَ بَرَّحَ بى شَوْقٌ إلى رؤيةِ الْـكُلِ
فلم أرَ فيهم غير أخت حزينة
بَرَاهَا الضَّنَى من غَمْرَةِ البؤس و الثُّكْلِ
أقامت بنا الأيام حرباً فلم تدَعْ بقومى من شيخ يَدِبُّ ولا طفل
إزاء قضاء الله أصبحتُ حائراً أُقَصِّرُ فى ميدان عيشى أم أُبْلِى ؟

وما رأيت الديب يذكر أهله ويحنّ إلى عشيرته إلا فى الأعياد ، تلك المواسم التى كانت تشعره بعنف أنه وحيد لاسند له ، ولطالما بعث فيها برسائل الشكوى والاستعطاف إلى أخيه الشيخ « محمد الديب » على أمل أن يعطف قلبه إليه ، وليسأله المعونة التى تقيل عثرته وترد إليه فرحة العيد ، ولـكن أخاه كان قد نفض منه يديه ، إمّا عن عمد بعد أن لمس سقطة أخيه النابه ذلك الذى كان يعقد عليه الأمل فى بناء مجد الأسرة ، وإمّا عن اضطرار لضيق الرزق وكثرة مايحمل من تبعات ، وما كان الشاعر يرحم أخاه أو يلتمس له عذراً ، فهو ساخط عليه سخطه على الناس ، وناقم منه أنه أغفل أمره وتقاعس عن مدّ يد المعونة إليه ، على أنه حين يلحيَ أخاه هذا ما كان يقدّر إطلاقاً أنه مرتبط بالتزامات عائلية وتبعات قد تؤوده بعض الشيء ، وإنما هو مُصرٌّ كل

الإصرار أن أخاه محمداً فى خفض من العيش ، وأنه يعبث بالذهب النضار مستمتعاً هو وأولاده على حين أنه يبخل عليه بالقليل ، و يصرف عنه سَيْبه ونداه .

وهكذا شاء الديب أن يظلم أخاه كما ظلم الناس ، فإذا كتب إليه معز ياً فى فقد ولد من أولاده نراه يمر على التعزية مروراً عابراً ، ونجد أنه لايتناولها إلا بكلمة واحدة وكأنها لم تكن من قصده فى رسالته ، ثم يَنْفَلِتُ فى الأبيات كلها إلى الغرض الأصيل الذى يدور فى نفسه دائماً ، وهو تقريع أخيه ولومه على إهماله إياه ، و إليك مابعث به :

أَخى ، وأَيَّةُ دُنْيا يَسْتَطِيبُ بها ... مَرِيءُ عيشكَ إن خَلَّفْتَنِي هَمَلا ؟
إنى أعزيك.. لكنى على مِحَنٍ ... ممَّا تُعَامِلُنِى حتى غداً مثلا
أعطاك ربك عيشاً هانئا فغداً ... نداك شُحًّا وكم أوسعتنى مَلَلَا
وهَبكَ مُلِّكت مافى الأرض من ذهب
فإن كفك عن وصلى به بخلا
سأحفظ الوجه عن أن يستِرقَّ لكم
وهكذا العيش لاخُلْفًا وَلَا جَدَلَا

وحادثة واحدة أرويها للقراء فى هذا الباب ليدركوا أن إخوته كانوا من أبر الناس به ، وأحناهم عليه ، وليستيقنوا كذلك أن الديب

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

ما كان يعنيه من أمرهم إلا أن يقدموا إليه نقوداً بأى ثمن كلما طلب وأنَّى أراد ، وهذه الحادثة تفسر لنا إلى جانب ذلك كيف كان صاحبنا يتخيل الأمور ويرويها على طريقته الخاصة .

فى صيف عام ١٩٤١ قدم إلى القاهرة شقيق الشاعر عبد القادر الديب ، وهو شاب أصغر منه سناً ، فيه هدوء واستقامة ، يخفُّ إلى المسجد وقت الصلاة ، وكأنه يستعين على كسب عيشه بالسعى الحثيث مقترناً بإرضاء الله مقسم الأرزاق ، فلما عرفت الشاب وعرفنى ، طفق يبث لى آلامه من انحراف أخيه عن الجادة وإمعانه فى البعد عن الله سبحانه ، وقد أكّد لى أن إغضاب الخالق لن يجنى المرء منه فى حياته إلا الفشل والإخفاق ، وكان عبد القادر يعمل فى حى الأزهر ، فإذا وجد لديه فضلا عن كسب دسَّ قروشاً فى يد الشاعر وفى نظراته ما يشبه الاعتذار إلى أخيه البائس الممتحَن .

وفى صبيحة يوم كنت أجلس مع أصدقائى فى مقهى البسفور بشارع الأزهر ، حين قدم إلينا الديب وفى وجهه ألم متكلف كنت أعرفه فيه ، فقلت له : ما خَطبك أيها الصديق ؟ ، سألته وأنا أتوقع منه قصة طريفة نستقبل بها اليوم الجديد ، فأجاب : وهل هناك إلا ذلك الجاهل الفَدْم أخى عبد القادر ، فقد استأجرنا بالأمس حجرة بثلاثين قرشاً ، وقد أراد أن يرغمنى على النوم مثله عقب صلاة العشاء ،

www.alkottob.com

فاصطنعتُ النوم حتى استغرق هو فيه ، ثم خرجت إلى جولتى الليلية كشأنى منذ ربع قرن أو يزيد ، فلما عدت فى الساعة الرابعة صباحاً وجدته قد خرج لصلاة الفجر بمسجد الحسين ، وحين عودته وجدنى عاكفاً ما يكره ، فلطم وجهه وصرخ مُؤكداً لى أن الملائكة يقسمون الأرزاق فى هذا الوقت ، فكيف لى أن أنال نصيبى منها وأنا مُقترِف لما يرَى ؟ ! فطفقت أجادله بالحسنى قائلا له : إننى بائس مطرود من السماء ، ولا رزق لى أنتظره من أحد ، فلما لجّ فى صراخه ، وكاد يوقظ الجيران ، انهلت عليه ضرباً ولكما حتى أصيب فى عينيه ، وإنى لأخشى أن يكون قد ذهب نورها ، ثم غادرته فى الحجرة وقدمت إليكم . ولم تمض دقائق على فراغه من حديثه حتى قدم أخوه عبد القادر صحيحاً معافى ليس فى عينه ما يؤيد الحديث الذى قد سمعنا ، فانفجرنا ضاحكين من هذا الخيال العجيب ، إلا أن الديب أضاف معقّباً فى همس لا يسمعه أخوه : « إنه هزمنى هذا الصباح ، فلم يقبل أن يدفع إلى « الشلن » الذى كان معه ، فأحببت أن أهزمه بدورى وهو غائب بما قصصت عليكم من خيال » . وقبل أن ينصرف أخوه الذى لم يعلم شيئاً مما حدث ، دسَّ فى كف عبد الحميد قروشاً حتى يتناول بها إفطاره ، ثم مضى ليكسب غيرها فى كثير من الثقة بالله واليقين من فضله .

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

وكانت قصصه مع أهله كلها تنتهى فى وَهم الشاعر إلى نهاية واحدة: هى أنهم أغفلوا أمره وأسلموه للبؤس والشقاء ، وقد كان فى وسعهم أن يكسبوا من أجله ، حتى ينعم بما قد كسبوا ، ويسعد بما يصيبه منهم رضوا أم كرهوا !.

وبعد ، فقد كان الديب فى يوم العيد ناقماً على الناس جميعاً أشد ما تكون النقمة ، وحاقداً عليهم حين يبتسمون ، ونفوراً منهم إذ يلقونه بالتهنئة يتمنون له طول العمر والحج المبرور ! ، بل ربما يصرخ فى وجوههم بقوله :

يامَنْ لجرح بهذا القلب يَأسُوهُ ... جرح اليتيم الْمُعَنَّى مات أَهاُوه
تزَاوَرَ الناس يوم العيد ليس بهم ... أخٌ على الدهر يدعونى وأدعوه
أنا الغريب على الدنيا فعالمها ... أَعْدى عدوى يهجوننى وأهجوه
والناس فى مصر أَعْوانُ الظَّلُوم بها ... لو قال : كونوا تراباً لى لكانوه
ياقوم مالى من ذنب أُدَانُ به ... مابال نورى إن أَظْهَرْتُ تخفوه
لكنها مِحْنَةٌ أنتم طواعية ... فيها لدهرىَ إنْ يَأْمُرْ تجيبُوه

www.alkottob.com

الفصل الرابع

الثائر الحاقد

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

إنّ ثورة الأفراد أو الشعوب ليست دائماً نتيجة للشعور بالظلم وحده ، فإن شعور النفس الأنسانية بالظلم إنما ينجم من الخلل الذى يصيب المقاييس الطبيعية التى تعارف عليها النظراء لتكون ميزاناً يتحاكم إليه الأفراد والشعوب فيما قد يعرض لهم من شئون وأحوال .

وإحساس النفس بهذا الخلل فى المقاييس التى دَرجت على إلْفها ليس كافياً وحده فى دفعها إلى الغضبة وحملها على الثورة ، أمّا إذا انضمّ إلى هذا الأحساس إيمان وطيد بالكرامة الذاتية واستمساك قوىّ بمبدأ المساواة فهنا تشعر النفس إلى جانب شعورها ذاك أنه قد اعْتُدِى عليها اعتداء صارخاً لا مبرر له ، وهنا تشعر أنها قد أصيبت فى الصميم من كبريائها إصابة بالغة من غشوم ظالم ، وحينئذ تنطلق منها الثورة جامحة مدمرة لا رحمة فيها ولا هوادة ، وهكذا تُخلق الثورة فى الأفراد والشعوب .

ولسنا نجد الأمر كذلك فى طائفة العبيد والأرقاء مثلا ، فهؤلاء ولا شك يشعرون بالظلم شعوراً قوياً حين يتلوون تحت سياط سادتهم ، ولأنهم فقدوا معنى الشعور بالشخصية نراهم بدل أن يفزعوا إلى الثورة على جلاديهم يرتمون على أقدامهم ضعفاء أذلاء ، ويجنحون إلى الطاعة العمياء بل ويخلدون إلى الذلة والمسكنة .

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

وموقع الديب من هذا البيان المتقدم أنه كان ـ فيما يعتقد ـ هدفا لظلم الحياة والناس ؛ وأن شعوره هذا كان شعوراً قويا يكاد يعصف بكيانه ويزلزل وجوده ، فإذا انضم إلى هذا الشعور إيمانه بعبقريته ، ويقينه بأنه فنان من حقه على المجتمع أن يقدره قدره ، وأن يهيىء له حياة تليق بمقام فنه وعبقريته ، وهو حين يأكل الحرمان ويحيا بالأمل الكاذب يحس فى عنف أن كرامته قد أهدرت ، وأن الناس قد ظلموه وتجنوا عليه ، ولهذا نجد أن دوافع « الثورة » تتجمع فى وجدانه لتهدر هواتفها فى جنبات صدره المحنق ثم لتنطلق قوية صاخبة فى شعره ، وقد اصطبغت ملامحها بالدم ، وتصايح فى ساحتها الويل والثبور .

وما ظنك بمن كان ينظر إلى الحاكمين المتسلطين على الشعب نظرة كلها ريبة واستخفاف ، فهو يرتاب فى أساليبهم التى يجتذبون بها الجمهور ، حتى إذا ما وصلوا باسم الشعب إلا ما يبتغون من منصب وجاه كانوا فى المكان الأسمى الذى لا تصل إليه صرخات هؤلاء الفقراء المخدوعين ، ولا عليهم حينذاك ألاّ يحققوا لهؤلاء شيئاً مما كانوا قد وعدوا به من قبل ، فالقول شىء والتنفيذ شىء آخر .. !! .

والشاعر مستخفّ بهذا الصنف من الحاكمين سواء أكانوا من سلالات عريقة فى الغنى والسلطان ، أم كانوا ممن رفعهم الشعب من صفوفه إلى المنصب ، فإن هؤلاء وأولئك فى الأعم الأغلب كانوا يثرون

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

هم وأقرباؤهم من الكسب الحرام واستغلال النفوذ ، على أن النوع الثانى كان ينسى دائماً أنه جاء للتخفيف من أوجاع الشعب لا ليثرى هو ومن يُحب من أقواته وأرزاقه .

والديب يرى فى فريق غير قليل من هؤلاء وأولئك أنهم فى مواهبهم أرض لرفيع سمائه . ! ، وأنهم فى أخلاقهم منخفض لشامخ فضائله وطهره . . ! ، ولكنهم وثبوا إلى الحكم فى غفلة من الزمن ، لأن الأيام شاءت أن تبدِّل أرضهم سماء ، وتجعل منخفضهم علوا ، فهم فى رأيه سُرَّاق مجد ، ومحترفوا زعامة وإن ادّعى لهم « الأنصار » عصامية وذيوع صيت .

وتلك صورة فريدة مما أرسله عليهم من الصواعق ــ وهى كثيرة متلاحقة ــ وذلك حينما رفض رئيس وزراء سابق أن يقلد الديب عملا حكومياً بحجة أنه سكير لا يؤتمن على عمل :

أَيُعفِيكَ من دمعى نفورُكَ من ذنبى
دَعِ الذّنبَ يُحصيه ويغفره ربى

شربتُ بكأسٍ أنتَ مُنشىء كَرْمِها
كِلاَنَا بها طَبٌّ على السلم والحرب

تلُوم لتقصى الخير عنى وترتدى
غُلاَلَةَ ذى نُسْكٍ تَعَبَّدَ فى خَطْبِ

أَتُصْبِحُ قدّيساً لِتفْسُقَ بالندى
وتهبطَ بالأخلاق عن شرف القلب؟

www.alkottob.com

إذا كان قطع العيش عنّى هدايةً
ضَمَمْنَ إلى الأخلاق مَكْرُمَةَ الكذب

دعونى وكأسى .. إن خمرى قِيامَةٌ
من الموت فى بَأْساء عيشى أو كربى

طعنتَ سلوكى طعنةً لو ببعضها
أُصيبتْ سماء الله قُدَّتْ من الشُّهْب

فإنّى كالحسناء فى بكْرِ حُسنها
تُعَافُ فلا تُرجى بعُرْسٍ ولا حُب

وكالكنز « مرصوداً » فليس بنائل
به كاشِفٌ يوماً سوى صَرْخَةِ الرعب !

أَقِلْنيَ من ذا اللوم حتى تُقِيلَنِي
من البؤس واتركنى لما شاءه ربى

والشاعر حين يستبد به اليأس ويعصف به الألم المرير يجنح فى شعره تجاه « الحكومة والقصر » إلى شجاعة فكرية وتجريح موجع ، قد يسمحان له فيما أرى أن يأخذ مكانه فى صفوف الشعراء الثائرين المتمردين .

فحينما كانت الحكومة تدعو الأغنياء إلى التبرع لمشروعات يراها الديب مُريبة كمشروع البر والحفاء مثلا ، وحينما تحدّد « السراى » للألقاب أثمانا مختلفة يقدمها الأغنياء لتلك المشروعات لينالوا الألقاب التى يحبون ، أو يقدمونها فى صورة « هدية » فى مناسبة ملكية ، حينئذ يفزع الحاقد المظلوم إلى شعره ، فيَرِيش منه سهاماً

www.alkottob.com

صائبة ليرمى بها الحاكمين وليرسلها إلى « القصر » فى كثير من الكياسة والحذر ، حتى إذا أصابت الملك أو بطانته لايجد فيها القانون الذى كان يحمى « الذات الملكية » إلا نقداً عاماً غير محدد ، فهى فى نظر المدعى العام أشبه ماتكون بصرخات يائس مغمور ، أو صيحات شاعر منسى قد فقد الجاه والنصير ، ولن تُضار ذات الملك أو بطانته من صرخات يائسة تحملها الرياح ، أو صيحات خافتة تذهب سدًى فى الفضاء الفسيح ، وهكذا يكون الشاعر فى مأمن من صولة القانون ، و بمنأى عن شبح السجن الذى يرهبه و يخشاه .

* * *

ور بما يكون من الأنصاف أن أشير إلى أن الديب لم يكن فى ثورته تلك مثالياً كما قد يتبادر إلى الذهن . ! ، فهو و إن يكن قد ردد فى شعره الثائر إسم « الشعب » إلا أن ذلك لم يصدر منه عن عقيدة و إيمان ، لأنه لكثرة مالاقى من محن كان قد فقد الإيمان ـ نسبياً ـ بالقيم واستراب فى المثل العليا ، بل ر بما يكون فى أعماقه مُنكراً جلال التضحية وساخراً ممّن يتألم أو يثور من أجل الآخرين .

ولن يستطيع أحد أن يَلْحاه فى ذلك ، فإن عذره الذى قد لايقره منطق التضحية و إنكار الذات أنه لايجب أن يشقى ليسعد سواه ، فهو ـ فيما يزعم ـ الهدف ولا هدف سواه لإهمال الحاكمين وسخرية المحكومين ، أليس هو القائل :

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

وقد ساء ظَنِّى فى العباد جميعِهم   فأجمعتُ أَمْرِى فى العِدَاء وأجمعوا؟

ولـكن الذى أعلمه عنه أنه ما كان يشمت بذلة عزيز أو يرقص على مصرع ممتحَن ، والذى لمسته فيه أنه كان وهو فى أحلك أيامه ـ موصول الدمع ، متجدد الألم لـكل جائع ومُبْتَلًى وفقير ! .

وأيّاما كان .. فلنا أن نعتبر أنه كان « أنانياً » فى هجائه لذوى السلطان فقد كان يكتفى بتصوير آلامه و بؤسه للتعبير عن آلام غيره من الشعب ، أو لعلى أكون متجنِّياً على الصديق البائس فيما ذهبت إليه ، لأنه طالما حدثنى أن محنته قد نسخت كل محنة ، وأن غَبن مواهبه لايعدله غبن ، وأن تجاهل المجتمع قدره كفنان أمر لايدانيه إهمال أو ازدراء .

والذى أريد أن أسجله على ضوء فهمى للديب : أن كل كلمة من شعره يسوقها فى هذا المعنى إنما كان يَثْأَرُ بها لنفسه أولا وأخيرا ، فإذا كان بها فَضْل من إِيجاع تركه لغيره من المستضعفين الجياع يَشْفُون بها غليلهم إن هم أرادوا ذلك .

و إليك قصيدتين من لواذع نقده ، أولاهما فى تزييف مشروع الحفاء ، وثانيتهما فى التعريض بالملك السابق :

* * *

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

— ١ —

إِلَى جِوَارِ النّدَى للبائس الحافى ثُمالَةَ الكأس للمحروم والعَافى
قالوا الحفاء، فقلنا لاَ يَضِيرُكُمو مَنْ يَأْمَن الموت جوعا أنّه حافى
الشعب جوعان لم يشك الحفا أبداً وَلَمْ يَمُدَّ لَكُمْ رِجْلاً لِإِنْصَاف
فقد يبيع الحذاء الفخم صاحبه لينقذ النفس من جوع و إتلاف
وفى البلاد على خطب الطَّوَى صُبُرٌ
وليس كالصبر فى خطب الطوى شافى
ولابسين على فَقْرٍ جُلُودَهُمُو لايلبسون سوى ماحَيَّرَ الرَّافى ..!
هذا هو البؤس، لاَ حَافٍ وَمُنْتَعِلٌ
والْجُرْحُ .. لكنه عن طِبِّكُمْ خافى !!

— ٢ —

أَأَنَّاتُ محرومٍ، وذِلَّةُ عَافِى وشقاءُ مغمور المواهب .. خافى
وَأَجُوسُ جنات النعيم إلى العلا فإذا بأرجاء الجحيم مَطَافى
والناس قدجعلوا ازْدِرَائِى فِكْرَةً تُوحِى بها الأسلاف للأخلاف
وحُرِمتُ حتى من حنان عشيرتى لاَ رَاحِمِى أهلى .. ولا أُلاَّفِى
أأصوغ فى عُرس المليك قصيدة وأنا إلى الموت الرهيب زفافى ؟!
لو كنتُ من شعب المليك نَظَمْتُها من مهجتى وعواطفى وَشِغَافى

* * *

www.alkottob.com

وأستميح القراء عذراً فى أن أتحدث إلى الناشئة بما شهدناه نحن الذين تخطينا مرحلة الشباب ، ففى ذلك بعض الفائدة التى ترجى فى كل ما يقرءون ، فقد شاءت الأقدار أن تقترن حياة الشاعر بأحداث سياسية كبرى هزت العالم وتأثر بها مصير مصر السياسى فى الداخل والخارج ، فقد شهد الحرب العظمى وصحب الثورة المصرية عام ١٩١٩ ، وأبصر مانجم عنها من دستور وانتخابات ، ثم بدأت تطالعه حشود من أولئك الذين يحترفون السياسة ، متخذين من الحزبية الحادّة سلماً للمجد والغنى ، وطالما جلس إلى « النواب والشيوخ » فما كان يجد فى أكثرهم إلاّ جهالة مفضوحة وسذاجة مضحكة لا بشئون السياسة الخارجية فحسب وإنما جهالة بشئون بلادهم التى يمثلونها فى « البرلمان » ، لأن بعضهم ما كان يطيق أن يكتب اسمه إلا بعسر ومشقة ، وبعضهم الآخر لا يفهم ماذا يجب أن يفعله من أجل ناخبيه ؟ ! ، وحسبه أن يذهب إلى المجلس ليصدع بما يؤمر به فى اجتماع الحزب ، وربما لا تنطق شفتاه فى « الدورة النيابية » كلها إلا بكلمتين قد لا يحسن غيرهما ، فهو إمّا هاتف فى حماس بكلمة : « موافق » إن تنزّل بها عليه الوحى ، وإمّا صائح فى غضب وعُنْجُهيّة بكلمة : « غير موافق » إن أُشير عليه أن يصيح بها ، ثم هو أمام ناخبيه خطيب بليغ ، وسياسى قدير . . ! ! .

فإذا جلس صاحبنا إلى هؤلاء « المشرّعين » كما كان يصفهم أسرّ

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

فى أذنه أحد الأذناب الذى يتبعونهم فى كل مكان أن ينظم فى مدح الشيخ أو النائب قصيدة عصماء ، مؤكداً للشاعر أن الممدوح كريم العطاء يهزه المدح و يلينه الثناء ، والديب كما هو معروف عنه لا يترك فرصة مالية تمرُّ به دون أن يهتَبِلها إن استطاع ، أو على الأقل يعدو جاهداً خلفها إن هى تنكبت طريقها إليه عساها ـ فى وهمه ـ تدبِر إليه مرة ثانية ، أو تُقبِل إليه باسمة على استحياء ، ولكنه كان يجد فى مثل هذه الأحوال ـ التى كثيراً ما تعرِض له ـ أن فيها متنفساً له عما يتفاعل فى نفسه من حقد ومرارة ، وأنها فرصته التى يرتقبها ليسخر فيها من شخص الممدوح .

وقد يشير هذا التابع فى ملق وتخابث إلى « سعادة » النائب الجهول أو الشيخ الأُمِّى بإشارة يَخال أن الديب لم يفطن إليها ، ولكنه ـ وهو الفطن اللمَّاح ـ يسمعها مجلجلة فى أذنيه ـ ويؤثر أن يتجاهلها فى فى شُرود مفتعل ، وهمهمة مبهمة ، أتدرى بماذا يشير التابع على متبوعه . ؟، إنه يوعز إليه أن يبتاع للشاعر لفائف تبغ ، وأن «يتفضل» فيأمر له بأكواب الشاى ، وحجته فى ذلك ، أن التبغ والشاى أمران لا بد منهما فى اسْتِنْزَال الوحى واستدعاء القريض . . ! ! .

وهنا يطيب للساخر الحاقد أن يودع شعره فى مدح هذا الجاهل

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

الغنى سخرية مُرة ، وتهكّماً لاذعاً ، فهو يصفه بأنه ذُخر الوطن ، ورجل الملمّات . . ! !

فإذا أقبل الشاعر لينشد صاحب السعادة ما صنع من مديح ، تجشّأ سعادته واصطنع الخجل أمام جلسائه ، فإذا انتهى الأنشاد وضج المجلس المتملق إعجاباً بهذا الأطراء الصادق ! ! والمديح الحق . . ! ، تحرك سعادته قليلا فى مقعده ، ودسّ يده فى حافظة نقوده المنتفخة ، وأخرج منها « قروشاً » يضعها فى يد الديب . وهو يقول : مساكين هؤلاء الشعراء إنهم يستحقون الأحسان . . ! ! ، فترتفع الدعوات من حوله أن يُبقى الله أمثاله من ذوى الجاه والغنى عوناً للفقراء والمحتاجين .

وهنا يُصيب السهم كبرياء الديب فيترك المجلس على أن يعود بعد دقائق ولكنه لا يعود إلى المقهى سحابة يومه ، لأنه يمضى بما اكتسب إلى حارة اليهود أو حىّ الزهار . . ! ! .

وفى خلال هذا المعترك الصاخب عرف صاحبنا محنته التى مرّ بك طرف منها ، فأذهلته بعض الشىء عما كان يجرى حوله من صراع حول الحكم ، وعبث بحقوق الفقراء والمستضعفين ، وإن بيتاً من شعره ليصور لنا أمر تلك الفترة حق التصوير وذلك حين يقول :

بنو أمية كان المُلك غايتهم فأدركوه بدعوى ثأر «عثمان» ! !

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

وما هى إلا سنوات حتى انطلقت الحرب العالمية الثانية تلك الحرب التى لم يُتح للديب أن يشهد نهايتهـــا ، فلقد قضَى قبل أن تضع أوزارها .

وقد شهدت مصر خلال هذه الهزات المتلاحقة صنوفاً من الهول السياسى قد شاءه لها الاستعمار البغيض ، واستتبع ذلك كذلك أن يُعِدَّ الأنجليز بأنفسهم أو بأذنابهم طوائف معيّنة تحكم مصر بحيث تختلف كل طائفة عن الأخرى فى نهجها ووسائلها وإن تلاقت جميعها فى الغايات والأهداف ، لأن إرضاء « السفارة البريطانية والقصر » هدف أسمى للوصول إلى الحكم ، أمّا « الشعب المصرى » فهو فى تقديرهم وسيلة أخيرة إلى بلوغ أطماعهم ، فإذا ما غضبت عليهم « الجهات العليا » اتجهوا إليه طالبين منه أن يكافح من أجلهم :

وإذا تكون كَرِيهَةٌ أُدْعَى لهـــا
وَإِذَا يُحَاسُ الْحَيْسُ يُدْعَى « جُنْدُبُ »

والسفارة البريطانية والقصر كانا يعبثان بالأحزاب ، فإذا سخط الشعب على فريق من الحاكمين استبدل المستعمرون به فريقاً آخر كان قد أعده خلف الستار وهذا التغيير فى أشخاص الرواية كان يُرْضِى حزباً ويسخط حزباً آخر ، وهكذا تصفق أكفٌّ فرحاً بتغيير البطل ، واستبشاراً بأولئك الممثلين الجدد . . ! ! .

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

وطبعى أن يصحب هذا التغيير تَضَخُّم فى بعض الثروات وضُمور فى بعضها الآخر ، وقد تخلق إلى جانب ذلك ثروات أخرى غير منظورة تتجمع أسبابها فى الخفاء ، تلك التى ربما يكون سبيلها الرشوة من جاه أو منصب ، أو يكون طريقها الكسب الحرام من مشروع يُعد باسم الصالح العام .

وكنا قد ألفنا أن يصير الحكم دائماً إلى أشخاص « يحتكرونه » كلما قُيِّضَ لحزبهم أن يتولى الوزارة ، حتى كأن النبوغ السياسى قد خُلق لهم دون سواهم من الناس .

والحق أن هؤلاء المحتكرين كانوا يتواضعون أحياناً فيخالطون الشعب ، ويصطفون من بينه بطانتهم ، وربما يُسرفون فى تواضعهم فيرفعون إلى مجالسهم نفراً من ظرفاء الجمهور حتى لا يقال إنهم حكام صَلِفون ، وقد يتعطفون على هؤلاء الظرفاء ، فيكِلون إليهم أمراً من أمور الدولة ، أو يهيئون لهم « صحيفة » تنطق باسمهم وتسبح بحمدهم ، وقد لا تمضى فترة من الزمن حتى ينسلخ هؤلاء الظرفاء ـ بسحر ساحر ـ من طبقة الشعب ليحتلوا أمكنتهم الرفيعة ـ نسبياً ـ فى طبقة الأغنياء والمترفين . . ! ! .

شهد الديب بعينه كل هذا ، ورآى أصدقاء يعرف عنهم الكثير والكثير يُدفعون دفعاً إلى حيث الغنى والمجد ! وكلما نظر إلى نفسه

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

وجد أنه لا يبرح مكانه ، وأيقن أن يداً لن تمتد إليه لترفعه كما رفعت أقرانه الذين رآى ، وآمن كذلك أن الأحاديث عن انحلاله قد سدّت عليه الأفق ، وأقصت عنه كل أمل ، ولكنه على حرمانه من المجد والرفعة لم يقف مكتوف اليدين لا يفعل شيئاً ، فحمل نفسه حملا على تجريح هؤلاء الزملاء الصاعدين ، والنَّيلِ من مواهبهم وأشخاصهم ، كما أنه لم ينس أولئك الحاكمين الذين قسا عليهم جزاء ما أهملوه ، ومن ثم فقد استقر فى يقينه ـ كما كان يحدثنى ـ أن المجد فى مصر أصبح وَقفاً على من يستند إلى واحد من ثلاث : الأسرة والثروة ، والملق .

وقد أودع أحقاده على هؤلاء فى قصيدتين لاذعتين : ـ

ـ ١ ـ

مَا بَالُهُمْ سكتُوا كأنْ لم يعرفوا ... هذا الضحى والشمس فَلْيَتَشَوَّفُوا

ضَنُّوا عَلَىَّ بِكُثْرِهِمْ وبقلّهم ... وسواى لو طلب المعونة أسرفوا !

لاَ تُبْهِمُوا يا جِيرتى أحكامكم ... فى محنتى ، فلتعدلوا أو تُجْحِفُوا

لا تُسمعونى نَوْحَكُمْ لشقاوتى ... وَتَرَنَّمُوا بين الحوادث واعزفوا

ما بال من عرفوا أليم خَصَاصَتِي ... ورقيق حالى ليس فيهم مُسْعِف !

من كان يقدر أن يُفَرَّجَ كُربتى ... وَيُنِيب مدمعه فظلّ منصف

يتمتعون بمدمعى وشكايتى ... والبدر سلوَى للورى إذ يُخْسَف

ولربما غدت المواجع سلوة ... للمترفين ومتعة لا توصف

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

ولقد تَسَلَّى العين وهى قريرة ... بِمَنِ اغتدى فى قيد سجن يوسف

أأرى ذئاباً ؟ أم صحاباً ؟ إنهم ... وجميعهم فى الخطب لم يتعطّفوا

«بار اللواء» جمعت بعض كتائب ... والحقد فيهم مستبد مُتْلِف

وقفوا كما وقف الزمان بمحنتى ... لدمى البرىء جميعهم يستنزف

أأعيش بينهمو شقيا معدما ؟ ... وهمو غنى ناعم وموظف ؟ !

— ٣ —

ياذِلَّةَ العيش بين البؤس والشرف ... عيش هو الموت فى الحرمان والتلف

إذا تناولتُ نجماً فى محاولةٍ ... رأيتُه حجراً صَفْوانَ من خَزَف

ولو كشفتُ كنوز الأرض ماظفرت ... يداى منها بغير الحزن والأسف

لعنتَ يا رب غيرى واغتفرت له ... هلاّ غفرت لشاكٍ غير مُقترف

أعيش فى أمّة ضاقت رَغَائِبُها ... بالدُّر وانصرفت حَمَّالَةَ الصَّدَف

إذا رغبتَ عبيداً فالتمس مَلَأً ... بمصر يَحْيَوْنَ كالأنعام بالعلف

أطعمتَ يارب هذا الناس من ذهب ... ونحن قيد الطوى نشتاق للرُّغُف !!

وكنتُ أول من يشدو لِمُؤْتَلِفٍ ... فَبِتُّ آخر من يرثى لمختلف !

وضمنى الدهر والأموات فى جَدَثٍ ... نرجو المراحم مِنْ بَادٍ ومُعْتَكِف

أبِى .. وأين أبى حيًّا ، ووالدتى ... لقد حسبتُهما فى صالح السلف

www.alkottob.com

وأطمع الوغْدَ فى تبريح مَتْرَبتى
وَأَرْكَبُ النَّوْكَ فوق الصدر والكتف

أحييتُ بالشعر أمواتاً فاهلكنى لأن سلمى به حرب لمنتصف
لاَهُمَّ ضاع شبابى وانتهى أجلى ولم أذق نَهْلة من كوثر الشرف !!

ولم يكن الديب فى عزلة عن الحياة العامة أو غافلا عن أحداث السياسة فى مصر ، ولم تكن آلامه على عصفها لِتصرفه تماماً عمّا يدور حوله من مؤامرات « حزبية » أو تَدْبِيتٍ استعمارى يُدبَّر لبلده فى الخفاء ، وإنما كان على العكس من ذلك فى أمر وطنه ، فهو غالباً مستوفز الحس ، سيّال المشاعر ، يذكر ما لمصر عليه من حقوق ، فإذا أصابها البأس أو مستها الشدة نافح عنها فى قوة وإيمان ، على حين أنه كان يُعلم علم اليقين أن مصر هذه ستصرف خيرها إلى غيره حين تهادنها الأيام أو يحالفُ ربوعها الأمن ويفيض فى جوانبها الرخاء ! .

لقد كان يحب وطنه بقدر ما كان يكره الحاكمين المتسلطين عليه أولئك الذين ينعمون وحدهم بخيرات هذا الوطن مُغمِضين أعينهم عن شعبة الجائع المحروم .

إن حرمانه هو وأمثاله الفقراء من أكلة شهية أو رداء نظيف لم يحمل شاعر الشعب إطلاقاً أن يتنكر لبلده ، أو يجحد حقها عليه ، والذى حدث فعلا أن ما وجد من حرمان وإغفال قد دفعه دفعاً

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

قوياً إلى التنكر للحاكمين حينذاك ، وربما دعاه هذا أن يرميهم بالهجاء المقذع ، ويدمغهم باللعن الأليم .

وقد عَصَفَتْ بمصر فى حياة الشاعر فتن حزبية جائحة أثارت الأحقاد بين الأقرباء وباعدت ما بين الأخ وأخيه ، وكان الاستعمار من خلفها ينفخ فى نارها كلّما خمدت ، ويعيدها عنيفة مُخربة كما كانت من قبل أو أشد ، وكان الديب البائس يرى بعينيه كيف كانت الغنائم تقسم فى هذا المعترك بين الأقرباء والمشايعين والاصهار !! ، أمّا ذلك الذين كان يستجيب لنداء ضميره فيستعلى عن الخوض فى تلك الفتنة إشفاقاً على وطنه ، فهو فى تقدير الحاكمين رجل خائن ، أو إن ترفّقوا به فهو مريض الوطنية سقيم المصرية ومن الخير إذن أن يُحارب ولو فى رزقه ، وأن يُصرف عنه العمل ولو كان نابها عبقرياً إلى غيره ممن يُؤثرون ولو كان جاهلا غبياً !! ، شهد الديب سلطان الهوى وعَرامة الشهوات يديران أمر الوطن ويصرفان شئونه فى ظلال الرشوة الكريهة والظلم السافر ، فالناس حينذاك فريقان : سادة وعبيد ، أو حاكمون ومحكومون ، ومن شاء من هؤلاء العبيد أن يصبح سيداً فالطريق بين يديه لا عوج فيه ولا التواء ، إنه طريق « الحزبية » ولا شىء سواه ، فإذا سلكه فى حماس هاتف وتقديس لِذات الزعيم فهو لا محالة واصل إلى نجاح ومغنم ، أمّا إذا شاء له حظه السعيد أن تتعلق

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

حِبَاله « بوزير خطير » ، أو تربطه صلةٌ مَا بصهر يحترف « المضاربات » فإنه صائر بعد قليل إلى رحاب المجد لأنه أَبَقَ من زمرة العبيد ليلتحق بصفوف السادة الآمرين ، ولن يشُق عليه أن يجد مكاناً ملحوظا فى المجتمع « الراقى » ، فالمال الحرام الذى قد اكتسب يُفسح له ذلك المكان الذى أراد فى مثل لمح الطرف أو عمل الساحر ، وقد أتيح للشاعر أن يشهد آلافاً من هاتيك الصور تمر أمام عينيه وهو واقف فى مكانه الأدنى لا يتحول عنه ، ذلك المكان الذى أنزلته فيه الحياة فربَضَ فيه لا يتحول عنه لأنه لا يستطيع أن يبرحه حتى لو أراد ذلك أو حاوله ، ذلك أنه عاش فى الطبقة الدنيا مع سائر الشعب ، فهو إذا تحرك فإنما يتحرك حول نفسه ، وإذا حاول الصعود إلى دنيا المجدودين ، فإنما هو « صاعد » أبداً إلى أسفل حيث يواجه سوء الطالع ، ويلتقى وجهاً إلى وجه بخيبة المسعى ونحس الجدود .

* * *

وقد مرت على مصر أعوام عصيبة عقب الحرب الكبرى ، وكان يعيش فى تلك الفترة شعراء مصريون لهم فى عالم الشعر جلالٌ وسلطان ، ولكنهم لم يتناولوا الأحداث التى وقعت فى عصرهم إلاّ من الجانب الذى يريدون ، ولم يُطيفوا إلاّ لِماما بذلك الجانب الوطنى الذى كان ينبغى أن يحشدوا من أجله مواهبهم ويجنّدوا

www.alkottob.com

عبقرياتهم ، ذلك لأن بعضهم كان فى خفض من العيش وموصول الحبل بذوى الجاه والسلطان ، وأن بعضهم الآخر كان يحلو له أن يُرى الناس من نفسه أنه بائس ممتحَن لأن محنة عابرة قد مرت به فى حياته ، فهو من أجل هذه المحنة العابرة تراه غزير الدمع لاهث الأنفاس .. ! ، وأمثال هؤلاء الشعراء لا يتحدثون عن مواجع الوطن بمقدار ما يتحدثون عن أنفسهم ، ولهذا فقد شغل هؤلاء وأولئك عن آلام الشعب فى جل أمرهم ، وانصرفوا إلى القول فيما يعنيهم من بناء المجد من الأفق الذى إليه يتجهون ، أو إلى « تضخيم » حرمانهم من النعيم الذى أُتيح لسواهم من النظراء والأقران ، ولست أزعم أن الديب حين حمل رسالة الشعب المصرى دونهم أنه كان أنبل منهم مذهبا ، أو أهدى فطرة ، فإن صاحبنا ـ والحق يقال ـ لم يكن مختاراً فى التعبير عن أوجاع الفقراء أمثاله ، وإنما كان يدفعه إلى ذلك زحام من أوجاعه الخاصة والآمه التى كان يجِد الشعب مثلها أو أشد ، ومهما يك من شىء فإنى أزعم أنه كان للديب ميزة خاصة تفضله عنهم فى هذا المضمار ، وقد يثاب المرء رغم أنفه .

انظر إليه وهو يهجو حزبا جمع إلى الوزارة رياسة الديوان الملكى ويعرِّض بالملك السابق :

بَرَامِكَةٌ وليس لهم رشيدُ وَأَقْيَالٌ وكلهم عبيد

www.alkottob.com
www.library-arab.com/vb

مدحتُهمُ فما شرفوا بشعرى لحِسَّتهم ، وما شرُف القصيد
وصُغت هجاءهم فإذا الأهاجى على الأفواه لحن أو نشـــيد

وإن هذا الأيجاع الأليم أو مثله مما سيمر بك ما كان يُطيقه من الشعراء إلا الديب ، لأنه كان يعيش مع الشعب الجائع ويمتزج دمعه بدمعه ، وقد يئس أن يـكون له فى « ظلال القصر » موضع ، وأيقن أن « الأحزاب » لا تطمئن إليه ، ومن ثَم فقد جمع أمره وراض نفسه على القرار الذى انتهى إليه فى عيشه والذى يُمثله قوله من قصيدة :

رضيتُ رضاءَ الحاقدين . . وإنه لَأَوْلى لنفسى فى الحياة وأسلم

وليست بنا حاجة إلى الحديث عما أصاب الوطن على أيدى المستعمرين وأذنابهم ، فقد حكموا الشعب حكما رهيبا خرِست من عسفه ألسنة ، وانحرفت من بطشه عن الحق أقلام . . ! ! ، وفى شدة الهول وعُنف العاصفة خرج الديب « يعوى » من جحره ، مـكشِّراً لهم عن أنيابه ، وكان من عوائه :

أَبيْنَ عَجَاجِهَا نُبلَى بِخُلْفٍ يُؤَجِّجُه انقلاب وانتخاب !
نَعامٌ فى الوَغَى يا آل مصرٍ وفى غير الوغى ظُفُرٌ وناب
وما يبغون حربا أو سلاما ولـكن كل همِّهمو اكتساب
تعالى مجد مصر أن يُردَّى بشرذمة أخافوا واسترابوا

www.alkottob.com

إلى الهَيْجَاء إن بها حياة ... ومجداً لا يزول ولا يُشـاب

وها هو ذا ينقد تصرفات « الحكومة » فى عنف وشدة إذ تختص أنصارها من الأغنياء والأمراء بالقناعات الواقيه من الغازات، على حين أنها تحرم الفقراء وتتركهم إلى الموت فيقول :

يارب ما مِصْرُ أمام عَدُوّها ... إلاّ « كمائم » خُصِّصَتْ لِسَرَاةِ
للأغنياء ، وعبدهم ، وكلابهم ... أمّا الفقير فَطُعْمَةُ الغازات

ونجده كذلك يحاكى أسلوب ابن المقفع فى « كليلة ودمنة » ليعرض فضائح التموين على عهد إحدى الوزارات ، وليندد بهذا الأسلوب الرخيص فى الاتجار فى أقوات الشعب المكدود ، فيقول :

فى غابة الوحش ثارتْ ... عَوَاصِفٌ من جهنمْ
الأرض منها استجارت ... والصخر منها تـكلم
وما شدا الطير فيها ... إلا النعيب المُنَغَّم
قال الوحوش « لذئب » ... مُرِّ العواء تقـدم
فالحاكم اليوم ليث ... وصاحب الليث « مكرم »
كَمْ قبلَ حُكمِكَ شِمْنَا ... فيك المسيح بن مريم
يا مُسْتَغَاثَ جِيَاعٍ ... أكلتَ شعبَكَ فارْحم

* * *

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

وأجدنى مرّة أخرى على ميعاد مع شبابنا الإسلامى والعربى لأتحدث إليهم فى إيجاز عن مسألتين سياسيتين قد ظهرتا فى عصر الشاعر ، فأما أولاهما فهى مسألة فلسطين ذلك القطر العربى الذى بدأت تَنُوشه أطماع الصهيونية من كل جانب بتأييد من الاستعمار الغربى . وأما ثانيتهما : فهى الخطر اليهودى الذى اتخذ من فلسطين نقطة ارتكاز ، لتحقيق أهدافه الرهيبة ، وغاياته الإجرامية المخربة ، وقد كان شعور الديب بالنظر لفلسطين شعوراً عربياً خالصاً يفيض بالمرارة ويطفح بالأسى ، لِمَا كان يترامى إليه من بيع الممتلكات العربية فى فلسطين إلى شُذّاذ اليهود لقاء ما يدفعون من ثمن سخى تقدمه لهم نيويورك ولندن وباريس وغيرها من أوكار الصهيونية التى تهدف إلى شراء فلسطين بالمال لسلخها من الوطن العربى الكبير حتى تصبح نواة لبعث الوطن الصهيونى الذى يُداعب من قرون طويلة آمال اليهود فى شتى أنحاء العالم ، وليكون إلى جانب ذلك ظهيراً للاستعمار الغربى فى منطقة الشرق الأوسط ، تلك المنطقة التى أخذ سلطانها يقوى بقوة الوعى العربى فيها عقب الحرب العالمية الأولى ، ولأن ينابيع البترول قد بدأت تتدفق فى أرضها فى غزارة وكثرة ، تلك الينابيع الثّرّة التى هى كالشريان بالنسبة للاقتصاد الأوربى ، وكالرافد الحيوى للحضارة الاستعمارية فى غرب أوربا ، هذه الحضارة التى تَدين

www.alkottob.com
www.library4arab.com

بوجودها لوطننا العربى وتفتقر فى تقدمها إلى هذا البترول الذى يحرصون عليه حرصهم على حياتهم أو أشدّ حرصا .

* * *

وقد تجلى غدر الحلفاء بالعرب حينما باعوا فلسطين لليهود كما تباع السلعة فى الأسواق ، فخانوا بذلك وعوداً كانوا قد قطعوها على أنفسهم أمام العرب فى أن تظل فلسطين عربية كما كانت دائماً ، فى حين أنهم كانوا قد وعدوا اليهود بمثل ما وعدونا به بأن يحولوا فلسطين شيئاً فشيئاً إلى بلد يهودى لحماً ودماً ، على أن تكون وفية للغرب ، وتصير قلعة منيعة للاستعمار فى ذلك المجال الحيوى الذى تتجه إليه أطماعهم وتزدهر بسببه حضارتهم التى لا تزدهر إلا بدماء الشعوب ، ولا تُثمر إلا بعرق الأمم وآلام المستعبَدين ؛ وكان طبيعياً أن يغدر الاستعمار الانجليزى بالعرب ليحقق للصهيونية أطماعها فى فلسطين ، فكان وعد بلفور عام ١٩١٧ . . . ثم تبعته التمثيلية المفضوحة التى أحكم الانجليز واليهود أدوارها فى غدر وخسّة ، فظهرت على المسرح السياسى فى أوضاع مختلفة وأدوار متشابهة مما لا تزال آثارها فى نفس كل عربى ، ومرارتها لاتزال فى قلوبنا مقرونة بالحزن والأسى العميقين.

وفى عام ١٩٣٦ شعر اليهود بِفَضل من قوة فى فلسطين ، فإن أمريكا وانجلترا وفرنسا تتساند فى مدهم بالأسلحة والمال ، بينما كانت

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

السلطات الانجليزية تحكم بالإعدام على العربى الذى يمتلك سلاحاً يدافع به عن نفسه بدعوى إقرار الأمن ودعم الطمأنينة فى هذا البلد العربى الخالص !! ، وحينئذ استطاع اليهود ـ بتأييد من الانجليز ـ أن يؤلفوا عصابات إرهابية ، وجمعيات سرية للقضاء على العرب وإزهاق أرواح الأبرياء من الفلسطينيين ، فكانت هناك مذابح مروّعة هزت الشعور العالمى ، وأصاب هولها قلب كل عربى فى الصميم .

وقد كان الشاعر واحداً من أولئك العرب الذين جزعوا من هول تلك الكارثة التى دبرها الاستعمار الغربى لتمكين اليهود فى فلسطين ، فرمى بها شعباً آمناً مسالماً ، ثم وقف من بعيد يرقب النتيجة ويفرك يديه سروراً من منظر الدماء المسفوكة بغياً وعدوانا ! .

وقد سجل الشاعر العربى عبد الحميد الديب كل هذا فى قصيدته الوطنية ، تلك التى تفيض بأنبل المشاعر الإنسانية ، وتزخر بأصدق المعانى التى تجيش فى قلب كل عربى غيور ، وقد اختار أن يكون عنوانها:

« فلسطين الدماء »

أَقَتَلْتِهِمْ بالحُسن أم قتلوكِ ... الشمس أمك .. والهلال أبوك
دار النبوة .. والعروبة .. والهدى ... خَفَرُوا ذِمامَكِ بالدم المسفوك
جهلوا عليك ، ومادروك فأمعنوا ... فى قتل قومك .. ليتهم عرفوك

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

تيهى «فلسطين الدماء» على الورى — إنَّ الملائك والملوك بنوك
فلَرُبَّ ظبي من بنيك مُهفهف — بجماله وحسامه يفديك ! !
نامت عيون الناس إلا عينه — حتى يصيب الثأر من راميك
ولرب شيخ من بنيك محطم — بَهَرَ الوجود صِباً .. لكى يحميك
تعس اليهود فما لهم من ذمة — لو لم تكونى مُرّةً أكلوكِ

ورحم الله الديب . فإن الأيام لم تمهله حتى يرى أنهم «أكلوها وهى مرة» وأن أكلهم إياها لم يكن لأنهم أقوياء ذوو بأس ، وإنما قدّمها لهم الاستعمار لقمة سائغة ، وأقطعتهم إياها القوة الغاشمة فاغتصبوها من أهلها غصباً ، وهم الآن يعيشون فى ربوعها قلقين مفزَّعين تطاردهم أرواح شهدائها الأبرار ، ويدوّى فى أسماعهم نفير القومية العربية التى أَذِن الله أن تبعث فى كل مكان ، فمثل اليهود فى فلسطين كمثل لصوص اغتصبوا قصراً منيف البنيان فسيح العرَصات فأقاموا فيه على فزع ، تُخيفهم أبهاؤه العتيدة صباح مساء ، أو أنهم كالقزم الهزيل يلبس ثوب العملاق الجسيم ، فاليهود لهذا سيظلون فى فلسطين على همّ مقيم مقعد أو على رعب عاصف من العودة المرتقبة لصاحب الدار الذى لن تطول غيبته إن شاء الله .

ولا تزال كلمات الشاعر ترنُ فى أذنى وهو يحدثنى عن رأيه فى اليهود ، فقد كان ـ غفر الله له ـ يخالطهم ويختلف إليهم فى «حارة

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

اليهود » ، فإذا اجتمعت إليه قروش طار بهـا إليهم ليدسّها فى أكفهم الممتدة دائماً لقاء ما يقدمون إليه من شراب « الطافيا » أو ذلك الذى كان يسميه الشاعر « الخمر المعتقة ! ، حتى إذا استيقظ فى الصبـاح وجد آلام الخُمار تقترن بفجيعة الأفلاس ، وأحس أن قاطرات « محطة مصر » تتحرك كلّها فى صخب عنيف برأسه ، وحينئذ يلعن اليهود وسمومهم ، وكثيراً ما كان ينتهى به الحديث حول هذا الأمر أن يستعرض قصتهم فى القرآن الـكريم مع فرعون المصرى ، وربما كان يأسى أحياناً على فرعون أن أصابه الله سبحانه بسبب هذا النوع الخسيس من الناس ، ثم لا يلبث أن يدركه الأيمان المخبوء فى نفسه بالقرآن . فيؤكد لمحدثيه أن يهود فرعون صنف ، وهؤلاء صنف آخر ، فأولئك موحدون مؤمنون وهؤلاء شُذَّاذ آفاقيون يجندون مواهبهم لاقتناص المال قل أم كثر ، وقد يضيف فى قهقهة مرة : إنهم لخستهم لا يعفُّون حتى عن « القروش الديبية » تلك التى أجمعها بعد لأىٍ ومشقه . . ! ! .

حقاً ، إن الشاعر قد تأثر فى غضون الحرب العالمية الثانية ـ كما تأثر غيره ـ بتلك الدعايات الصهيونية التى جعلت من مطاردة « الهتلرية » لهم وسيلة لاستدرار العطف العالمى واستمالة القلوب إلى جانبهم ، وذلك أن الديب حينما كانت تعْصِف « الطافيا » برأسه كما أسلفنا يذهب

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

تحت تأثير الدعاية والنشوة إلى « المبكى » الذى كان لهم فى حارتهم المشهورة ، ليبكى معهم بدمع غزير ، فإذا لقى هناك المرأة العجوز التى يعرفها ، والتى تسمى « أم صهيون » أجهش الشاعر فى البكاء واستسلم للحزن والأسى ، والعجوز إلى جواره ترقبه فى إعجاب وانتصار ، فإذا سألها الديب أن تبكى معه ، أجابته بما ينطوى على كثير من الدهاء والمكر . . بل بما يشبه الشعر فى التأثير على النفس : « بكيت يا أستاذ . . حتى ما عَدُش فى العين دموع . » فيسترسل المسكين المخدوع فى نشيجه وهو يقول : ياولداه . . ياشعب مضطهد . . . زى الديب !.

وأرى أن الشاعر فى هذا إنما كان كالنائحة تبكى على مصاب غيرها بدموع مصابها ، وتندب فجيعتها فى مأتم الآخرين ، وفى هذا التعليل براءة للشاعر الوطنى العربى عبد الحميد الديب مما قد تورط فيه حين غَمُضت فى وجدانه الأحاسيس ، وإذ لم تتضح فى صدره تلك المشاعر المتباينة ، وإنى حين أجنح إلى هذا التعليل المنصف فيما يبدو ، أجد له سنداً من شعر الديب نفسه إذ يعرض لليهود ناعياً عليهم خسة مذهبهم فى الحياة فإنه يزدريهم ويرى فيهم العنصر الأخس ، والقَبيل الذى لا يعرف إلاّ الجريمة فى وسائله وغاياته .

وأكاد أطمئن إلى هذا التعليل الذى قدمتُ حين أسمعه وهو

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

يصور هَوَان أمره على المسلمين لنسيانه فى أعيادهم فيقول فى قصيدة له :

عيدٌ تطالعنى . . والعيش منكود لَأَنت يوم الأسى والحزن ياعيد
يُجدِّد الناس من لبس ومن فرح وعندنا للأسى والهم تجديد
المسلمون . . وقد عشنا خيارهمو كأننا بينهم فى عيدهم «هود»!!
لو أنصف الناس ماضحوا بشاتهمو بل كان قُربانَهم لِلْمُعْتَفِي جود

ويقول فى قصيدة أخرى مشيراً إلى قسوتهم :

إذا رُمتُ عيشى عاملاً فكأننى رَجَوْتُ «يهوذا» رحمةً « بِيسُوع

ويذكر فى ديبية رائعة ستأتى فى موضعها :

فأسمعتُه صوتَ الدراهم فانْحَنى يُقَدِّمُ أعذار «اليهود» من الْوَكْسِ

* * *

هذا ومن الخير لأنفسنا أن نريحها . . وندع الديب نفسه يقدم إلينا رأيه فى هؤلاء الآفاقيين المتشردين . . حين يقول :

أعمى اليهود وباء الاستعمار وأضلهم عن ذمة وجوار
يحيون أعداء الشعوب لأنهم قوم أذلهمو هوى الدينار
إن فاتهم ذُل النفوس تفتهمو نِعَمُ الحياة وعيشها المِدرار

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

قد كان «إسرائيل» شهما ، مالهم عاشوا لإسرائيـــل سُبَّةَ عار
حذقوا محاباة العباد فأصبحت لهمو طوال الدهر شر شعار
قضت السماء بأن يشرد شعبهم ويعد بين طوائف الفُجّـار
فهمو عبيد الأنجليز ومالهم فى نهضة الأحرار أى قرار

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

www.alkottob.com

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

الفصل الخامس

مع الديب متفكهاً وهاجياً

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

إن النفوس التى تستروح الفن تفزع إليه كلما أحست الضيق ، أو مستها الشدة ، ونحن حين نلتمس الضحك لنفوسنا ، لن نَروضها على أن تضحك فى مشقة ، أو نحملها على ماقد يكلفها عَنَتاً ، أو يقتضيها جهداً ، لأن أمرها فى ذلك سيكون هيناً يسيراً ، فليس عليها إلا أن تشهد معركة « ديبية » هى أشد عنفاً من المعارك الحادة ، وآلم لفحاً من وهج الهاجرة الذى نلتقط فيه أنفاسنا فى شىء غير قليل من الضيق والملل .!

والعجب أنك حين تشهد الديب هائجاً مائجاً ، يصول و يجول فى إحدى معاركه لاتملك إلا أن تنفجر ضاحكا لطرافة ماترى ، وروعة ماتشهد ، فالفارس الذى تراه هو عبد الحميد الديب ، يعنف فى ضعفه الذليل ، ويُقدم فى وَجله المعروف . ! ، والحسام الذى يُقلّبه الفارس فى كفه المرتعشة هو قلمه « الرصاص » الذى تعمد متناسياً ألا يردّه إلى صاحبه بالأمس ! ، والصرعى المجندلون أمامك هم صفوة أصدقائه والحانين عليه والدامعين على محنته .! ، وتلك ـ ولا شك ـ معركة فريدة لاتقع العين على مثلها كثيراً ، ذلك ، أن فارسها « المغوار » حين يلتقط فى عَجاجها أنفاسه اللّاهثة يكاد يخرج من إهابه رضاً بما أوجع بالهجاء وراحة بما استحدث فيه من خالد التعابير ورائع الصور ، وأنّ ضحاياه العاطفين عليه حين يمسكون جُنوبهم من وقع ما أصابهم يجدون أنفسهم مرغمين على الضحك إرغاماً ومدفوعين باختيارهم إلى

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

الإعجاب بالسهام الديبية التى رماهم بها عبدالحميد ، فهو فى تقدير الكثير منهم مغيظ محنق .. ولا بد للمصدور أن يتنفسا .

وكم عجبت حين ترامى إلىّ : أن فلاناً خائف أن أبعث ما كان قد هجاه به الشاعر ، وأن فلاناً يخشى على مكانته الاجتماعية أن يضع منها شعر الديب لو أنه نشر ، وقد كان مصدر عجبى من أمر فلان وفلان ، أننى أظن لهما سماحة النفس ورحابة الصدر واتساع الأفق ، وأننى أزعم لهما تناول الفنون من حيث هى فنون ، وتذوق الصور الشعرية وحدها بصرف النظر عما ترتسم عليه هاتيك الصور ، أو عمّا تستتبع من صفات .

وكان مصدر عجبى كذلك ، أننى أرى رأياً فى هجاء الشاعر الديب قد يراه بعض من عرفه واتصل به ، وهو أن هجاءه فى جملته ، قد صدر عنه وهو ضيق الصدر بالحياة وأحداثها ، ومستطار اللبّ من الناس وشماتتهم ، فما عرفت عنه أنه هجا صاحباً وهو راضى النفس ، مطمئن الفؤاد حتى لو تجنّى عليه هذا الصاحب أو أساء إليه ظالما ، فهذا جانب من الرأى فى هجاء عبد الحميد ، أما الجانب الآخر وله سنده من حياة الشاعر ، فهو أن هجاءه لا ينهض دليلا على أن المهجو جدير بما ادّعى له من نقائص معينة ، أو أنه يتصف حقاً بالمثالب والعيوب التى تخيلها الشاعر له ، وإنما الأمر ـ فيما أرى ـ على النقيض من ذلك تماماً ،

www.alkottob.com
www.library-arab.com/vb

فكل من تعرض لغضبة الديب له أن يفاخر بهذه الغضبة ، وأن يَعتدَّها منقبة من مناقبه ومفخرة جليلة من مفاخره .! ، لأنها تَعنى أن المهجُو قد أحسن إلى الشاعر، وعطف عليه فى محنته ، وإنما كان جزاء الإحسان هجاء وتجريحاً من جانب صاحبنا لأنه كان يطمع أن ينال أضعاف ماقُدِّم إليه من عون ، أو أنه كان استجابة لوشاية من عابث متخابث وقعتْ موقعها من نفس الديب ، وهو الذى ما كان يستقر على حالٍ فى أمر أصدقائه وخلطائه .

* * *

وصلَه يوماً المرحوم ابراهيم دسوقى أباظه بعشرة جنيهات ، ثم لقيه بعدها بساعات صديقه الأستاذ كامل الشناوى فألقى فى روعه أن دسوقى أباظه قد ربح اليوم من « البورصة » مبلغ عشرين ألفاً من الجنيهات . واصطنع الأسى والأشفاق على الديب ، وأضاف : « ومع ذلك فهو يعطيك أنت أيها العبقرى العظيم عشر جنيهات فقط ! » . فنظم الديب قصيدة كلها فحش ، منها :

أَبْلِغْ «أَباظة» عَنِّي : أَنَّهُم وَرِثُوا مَالاً وَلَمْ يَرِثُوا دِيناً وَلَا خُلُقَا

والمهجو ـ رحمه الله ـ هو الذى امتدحه الشاعر ظهر اليوم نفسه بقصيدة منها :

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

وَمَالِي لا أَزُورُ حِمَى كَرِيماً تَكَنَّفَ «حَافِظاً» وَرَعَى «حَمَامَا»

ولكيلا أرمى بالتشهير بمن سيتناولهم هجاء الديب وكلهم فى نفسى فاضل وعلى خُلق ، أستهل هذا الجانب الطريف من جوانبه الشعرية الرائعة بما قد شرفنى به من هجاء، وبما تخيل لى من صورة «الفِن» الذى يتّجر فيه النخاسون فى سوق العبيد ، وقد كان ذلك حين طلب إلى أن أقترض له نقوداً من صديق كان يتهيّبه ويخشاه ، فأغلظت له فى القول ، وزجرته أعنف الزجر ، فجلس قريباً من مجلسى ، وشرد بخياله بعض الوقت ، ثم تلفت إلىَّ لينشدنى ماهجانى به ، وكنت ألمح فى عينيه — وقتذاك — بريق التشفى والانتصار ، قال رحمه الله :

إِيهِ ، ياعَبْد الخَنَا ما أَنْذَلَكْ عُدْ إلى النَّخَّاسِ تَعْرِفْ مَنْزِلَكْ
تشتم الديب ، وكَمْ مِنْ مِحْنَةٍ يُشْتَمُ القِدِّيسُ فيها والْمَلَكْ

وما كان رحمه الله قديساً ولا ملكاً كما تخيل لنفسه ، وإنما كان إنساناً تصرخ فى عروقه غرائز الإنسان ، وكان يشفى نفسه دائما أن يثأر لها من أعدائه فى قوة واعتداد .

وقد كنت ثالث ثلاثة من المعممين الذين احتضنوا الديب قرابة ست سنوات ، وكنت — فى غير مَنٍّ ولا غرور — أَبَرَّ الثلاثة به ، وألصقهم بنفسه ، بل أستميح الصديقين عبد الحميد قطامش، وعبد الحميد

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

إبراهيم . . . لأقول إننى كنت أعمقهم فى فهم هذا المستكبر الذليل والحانِق المسِف ، لأنه كثيراً ما كان يصنع معنا ثلاثتنا مايثير الغضب ، فيغضب الصديقان وأرضى ، فإذا أقبلاَ علىّ باللوم والتقريع وجدانى هادىء النفس مقبلا على الديب فى حنو و إشفاق .. ! .

وقد كان الشيخ عبد الحميد إبراهيم ـ المدرس الآن ـ أيسرنا حالا ، وأرخانا عيشا ، فإذا رجع من قريته التى كثيراً ما كان يختلف إليها لقربها من القاهرة ، حمل إلينا طعام الريف الشهىّ ، فنجتمع والشاعر لنأكل طعام « أهل الجنة » كما يسميه الديب ، فإذا أكثرنا ـ مازحين ـ على الشاعر أن يأكل مما لم تره عينه ، ولا خطر على قلبه ، ولا سما إليه خياله الذى يعتد به ، هَمْهَمَ بهجائنا جميعا ، وأوجع فى ذلك صاحب الطعام أيَّما إيجاع ، قال :

بُليتُ آخِرَ عُمْرِى بِالْمُرائِينَا الواقفين على باب الثَّرِيِّينَا
مِنْ كُلِّ شيخٍ قدالْتَفَّتْ عِمامَتُهُ عَلَى الْمَذَلَّةِ يطْوِى عُمْرَهُ هُونَا
غَنيُّهُمْ بَاعَ مِنْ غَلَّاتِ بلدته خِتْياً ، وَطَالعنا نَذْلا يُبَاهِينَا
(نـ ..) من الريف (لُو..) وَ(مَأْ..) تَحْتَ العِمَامَةَ مِنه نَجْلُ (زَا..)

وهذا حديثى عما أملك من أمر نفسى وأمر صديقىّ العزيزين ، فهل تُرانى أطيق الحديث عن معمم آخر بنفس الصراحةِ التى تناولت بها

www.alkottob.com

ما كان بيننا و بين الشاعر ؛ وأظنني لن أستطيع أن أفعل . . ، وحسبنا إذن أن نعلم أن هذا الشيخ كان من رواد « بار اللواء » وأنه تبنّى حملة شعواء على صاحبنا فى صحيفة كبرى ، وأنهما اشتبكا معا فى معركة مشهودة أمام البار ، وأن كلاً منهما كان يكره الآخر و يتربّص به الدوائر ، وأن الديب هجاه بقوله :

عِمَّةٌ تَحْتَها ضَلَالٌ ، ولؤم ... وَهْيَ عُشُّ الخَنَا و بيت الداء
نُسِجَتْ مِنْ سَفَاهةٍ ، وَفُسُوقٍ ... وعَلَى الخِسَّةِ انْطَوَتْ والرِّياءِ
أَطْعَمَتْ رَبَّهَا دجاجاً حَنِيذاً ... وَسَقَتْهُ (الْكُونْيَاكَ) بَعْدَ الماء !

وهجاه وأفحش فى قصيدة منها :

جَوْعَانُ يأكُلُ مِنْ مَصَارِعِ عِرْضِهِ
فَلَا وَلَدَتْ أُمٌّ سِواهُ « عَسَا . . »

* * *

وكان من أجل أمانى الشاعر أن يجد له مكانا فى صحيفة الأهرام ، فلقد احتضنت كتابا يعرفهم وأدباء لا يقل هو شأنا عنهم ، وقد حفيت قدماه للوصول إلى أمنيته تلك ، وطال اختلافه إلى صاحبها ورؤساء تحريرها ومحرريها ، فكان دائماً يظفر منهم بحلو الأمانى ومعسول الوعود ، فلما يئس من درك طلبته أخذ يقتحم عليهم الدار إمّا مخموراً ، وإمّا

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

ثائراً ، وكانوا يصرفونه بما يُهدىء من ثورته أو بما يصرفه إلى الحانة مرة أخرى . !

وقد تجلّت نقمته على الأهرام وصاحبها فى قوله :

أَمُوتُ بِحَسْرَةٍ إِنْ ضَاعَ عُمْرِى ... وَلَمْ أَظْفَرْ بجبرائيل « تقـلا »

وَلَمْ أُنْجِ الْبِلَادَ وَمَنْ عليها ... مِنَ الشـامين تشريداً وقتلا

بداخل مُلك « فاروق » أقاموا ... لهم مُلْـكاً عَلَا ثُمَّ اسْتَقَلَّا

وأما غضبته على جاساء « بار اللواء » فقد ذاع أمرها ، وهى ماثلة فى خلد كل أديب عاصر الديب ، أو جلس إليه هناك ، وقد كان هذا « البار » بحق ندوة حافلة من ندوات الأدب الرفيع ، والفن الأصيل ، ولقد جرى الهمس يوماً على موائده أن الأستاذ أحمد محمد الصاوى صاحب ماقل ودل يزمع طبع ديوان الديب ، ولما علم الشاعر ذلك شكر له هذه الأريحية وطفق يجمع قصائده من الصحف ، والمجلات ، ومن أصدقائه .

ولـكن القدر كان يقف للديب بالمرصاد فى ثوب المرحوم الأديب حفنى محمود ، فقد صحب الشاعر إلى بار اللواء ، وأجلسه قريباً من مائدة يجلس عليها الأستاذ الصاوى بحيث يسمع كل منهما حديث الآخر

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

ولا يراه . . ! ! ثم أوحى إلى الديب أن يهجو الأستاذ كامل الشناوى ليطلب له كأساً ، ويمنحه « ريالا » فانشد :

« بَارَ اللِّوَاءِ لُعِنْتَ بالشناوى » ثم تلفت عفوا فوجد الصاوى قريباً منه فأكمل البيت هكذا :

بار اللواء لُعِنت بالشناوى وَرُزِئْتَ قَبْلاً بِالثَّقِيلِ الصَّاوِى

فغضب الصاوى وقال له : « لماذا تهجونى ياديب ؟ » فأجابه وحفنى محمود مبتهج من ذلك أيَّما ابتهاج : « إنها القافيه ياأستاذ ، وأمرى إلى الله فى إطلاق ديوانى الحبيس . . ! ! »

ولا أعلم أن أحداً أصابته شظايا الديب كما أصابت الأستاذ كامل الشناوى ، فإنه الهدف الأسمى فى هذا الباب ، وله أن يفخر بأن أحداً لن يستطيع أن ينازعه هذا الشرف مهما كان حظه من صداقة الديب .

وليقينى أن الأستاذ كامل الشناوى لن يضيق بشعرٍ كان هو أحد رُواته أبحثُ لنفسى أن أروى للأدب المعاصر « دُبيتين » فريدتين يعوى بهما على الشناوى الذى طالما أضحكه وأبكاه ، وطالما أراحه وأتعبه ، وهو فى الأولى يفزع إلى زوجه إحسان فيقول :ـ

وَمَادِحٍ مَوْهِبَاتِى مُهْدِرٍ شَرَفِى الغُصْنُ فى رَاحتيه نَصْلُ سَفَّاكِ

www.alkottob.com

إذا فتشتُ نواياه أرى صدرا ... من عاطشٍ للأذى في لؤم ضحاكِ
يُقضُّ مضجعَهُ شعري ومنزلتي ... فلا يودُّ سوى بؤسي وإهلاكي
« إحسان » لا تفرقي من محنتي وثقي
أني على الرغم من بلواي أهواكِ
ولا ترعكِ تجاعيدي فإن بها ... سطور غيبٍ أجافيه بإشراكِ

وفى الثانية يقول :

أسلمتُ للقدرِ المُذلِّ سلاحي ... وجرتْ عليّ مشيئةُ السفّاحِ
مُستضعفٌ يحنى عليّ ، كأنني ... يُتمٌ يُدلَّلُ في حجورِ سماحِ
يا محنةً أكلَ الشقاءُ شبيبتي ... فيها ، ومزّقتِ الخطوب جراحي
ولبستُ باليها بعُرسي مُكرهاً ... وشربت آسنَها معتّقَ راحِ !!
في أُسرةٍ ترجو المعيشة قُنّعاً ... بالخبز مؤتدماً بماء قَراحِ
ولها سوى حرب الشعوب حروبُها ... والدهر عزلاء بغير سلاح
جُرحان في كبدي لفرط صبابتي ... ولشقوتي والناس جد شحاح
ولو انّهُمْ جرحى خطوب زمانهم ... مَنْ ذا يقيسُ جراحهم بجراحي ؟
لا تعتبوا بُخلي بدمعي صابراً ... فيضُ الدموعِ بمقلة التمساح
أنبتُّ في الأخلاق صدقَ « محمد » ... وجنيتُ كذبَ (مسيلم وسجاح) !
أشكو إلى الأخلاق غِرّا والغا ... في الإفكِ رغمَ هدايةِ النُّصاح

www.alkottob.com

كَمْ ذَا أَقَلْتُ عِثَارَهُ وَرَحِمْتُهُ … فَارْتَدَّ يهجو نِعْمَتِي وَيُلَاحِي

نَبغَ النُّبُوغَ اللَّغْوَ فِى تَهْرِيجِهِ … وَمِنَ الطَّغَامِ مُهَرِّجُ الْأَفْرَاحِ

تَخِذُوهُ تَسْلِيَةَ النَّدِىِّ وَحَسْبُهُ … هُزْؤُ الضَّحُوكِ وَنُكْتَةُ الفَضَّاحِ

مِنْ مَعْشَرٍ أكلوا «الجِرَايَةَ» قُنَّعاً … « بِالْخُبْزِ مُؤْتَدِمًا بِمَاءِ قَرَاحِ »

ظَفِرُوا عَلَى الأَحْدَاثِ جُنْدَ مُوَفَّقٍ … لِلْمَالِ أَوْ خَدَماً لَدَى مِسْمَاحِ

إن كان هذا الفحش خِفَّةَ روحه … فَمِنَ الحماقة خِفَّةُ الأرواح !!

مَا كانَ ضَرَّكَ لو رعيت كرامتى … وَرَحِمْتَ تَبْرِيحِى، وَطُولَ نُوَاحِى

وَأَنَا الَّذِى لَبِسَ النُّجُومَ قلائداً … وَزَكَا غُدُوِّى فى الْعُلَا وَرَوَاحِى

وَطَلَعتُ فِى مَحْلِ الخَلَائِقِ وَاكِفاً … وَمَحَا ظَلَامَ الْمُعْتَفِينَ صَبَاحِى

أَيُبَاحُ عِرْضِى فى سفاهك بَيْنَمَا … عِرْضُ الْأَذَلِّ الغِرِّ غير مُبَاح ؟!

وَأَشَدُّ مَا أَلْقَاهُ يومَ رَزِيَّتِى … أَنْ أَجْعَلَ الهجو الوجيعَ سلاحِى

مِنْ قَبْلِ يوم البَعْثِ لُؤْمُكَ بَاعِثٌ … فِى كُلِّ يوم حامِلَ المِصْبَاح

نَحْنُ المَلَائِكُ والملوكُ ، وَحَسْبُنَا … بالشعر تَزْكِيَةً وَنَيْلَ وِشَاح

يَامِحْنَةَ الأدب الرفيع بِمَعْشَرٍ … جعلوا السفاهة آيَةَ الإفصاح

لَا يَصْدَعُ الزَّبَدُ الجُفَاءُ سَفِينَةً … والبحرُ طَوْعَ رَغَائِبِ الملَّاح

* * *

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

وأن من ألطف المواقف التى وقفها الشاعر حين عبث به الأستاذ سيد محمد العقاد ، فقد وعده يوماً « بسهرة » ممتعة ، ستنسيه حرمانه ، وسترد الابتسام إلى ثغره ، فطرب الشاعر وابتهج وانبسطت منه نفسه على مجرد الوعد الذى لم يعلم نهايته بعد ، حتى لقد فهمتُ فيه المعنى الذى أشار إليه أبو نواس فى قوله :

أَسْكَرُ بِالْأَمْسِ إِنْ عَزَمتُ عَلَى الشُّرْ

بِ غَداً . . إِنَّ ذَا مِنَ الْعَجَبِ !

ولما كنت أعلم أن الأستاذ العقاد مفلس توقعت أن يسجل الديب أمر هذا الحادث ، ولقد حدث ما توقعته ، ذلك حين وجد الديب نفسه يقف وحيداً فى ميدان باب الخلق ، فقد تعلق صاحبه بالترام المسرع فجأة وأشار بالتحية المتهكمة إلى عبد الحميد الذى لم يفهم شيئاً من كل ما يرى .

وما زال فى وقفته تلك حتى أيقظه من ذهوله صديقان له ، فلما قص عليهما القصص صحباه إلى حجرة أحدهما ، وهناك ألحّ عليهما أن يبتاعا له خمراً وطعاماً ، فلجآ إلى دعوى الأفلاس ، وكان أحدهما خبيثاً لا تُعييه الحيلة ، فجمع ما لديه من زجاجات خمر فارغة ، ودسّ بينها عامداً زجاجة « زيت خروع » وطلب إليه أن يحمل ذلك إلى حانوت الخمار « كركور » بميدان باب الخلق ليشترى « برهن »

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

الزجاجات ما يريد من طعام وشراب ، ولم يكن المسكين فى حالة تسمح له أن يتدبر ما فى هذا الموقف من ذلة ومهانة ، فإنّ عبث العقاد به أفقده عقله ، وإن إلحاح شهوته إلى الخمر قد صرفه عن كل شىء إلا عن الذهاب مسرعاً إلى حانوت الخمار ، فلما رجع إليهما يحمل مالذّ وطاب ، أخذ يطرى كرم « كركور » ويثنى على أريحيته ، فلقد أعطاه أكثر مما طلب على أن يدفع إليه فرق الثمن فى أول الشهر القادم . ! .

ولكن الديب لم يشأ أن يحدث صاحبيه بما كان من أمره وزجاجة الخروع ، ولم يرد أن يميل بالحديث إلى ما حدث له بشأنها مع الأرمنى الخمار ، ولمّا لم يتحدث طواعية بهذا عرض صاحبه الخبيث إلى فوائد « زيت الخروع » فى حالات « الأمساك المستعصية » ، وهنا أيقن الشاعر أنه كان ضحية مؤامرة جديدة عابثة كتلك التى دبرها له صديقه الأستاذ سيد العقاد ، وعلم كذلك أن ضعفه أمام شهواته يُذهب عنه اليقظة ، ويحجب عنه الجانب الحذر فى مخالطة الناس ، وحينئذ فقط وجد نفسه مرغماً على رواية القصة كما حدثت : ـ

فالعامل المصرى يلتقط الزجاجة بأطراف أصابعه مُتأفّفاً ويرمى بها فى الطريق ، والأرمنى الذكى يفهم الوضع فيتجه إلى الشاعر ليقول له فى رفق ورثاء : « إن هذا ولا شك خطأ غير متعمد » وكان من أثر كل هذا أن ظفرنا منه بأبيات فيها حلاوة ومرارة ، وبها أسف وغضب :

www.alkottob.com
www.library-arab.com/vb

وَبِعْنَا زُجَاجَاتِ الطِّلَا بَعْدَ شُرْبِهَا   لِنَظْفَرَ مِنْ أَثْمَانِهَا بِكُؤُوس
فَيَوماً شربناها بِعَيْنٍ وَفِضَّةٍ   وَيَوْمًا شَرِبْنَاهَا بِبَيْعِ نُفُوس!
وَشِمْنَا مِنَ «العقاد» أَنْذَلَ بَاخِلٍ   يَضِنُّ لَدَى البَلْوَى بِنَغْلِ فُلُوسِ
جزى الله «كركوراً» مُعِينًا ، فإنه   أَضَاءَ بِبُشْرِ الْخَمْرِ لَيْلَ عُبُوسِي
وَبَدَّلَ ماءُ الخُلْدِ حُزْنِي بَشَاشَةً   ففارقنى كربى وَشِدَّةُ بوسِي

* * *

وقد قصد الشاعر وزيراً أديبـاً كان يحب الأدب ويحنو على الأدباء ، وطالما وصل الديب وحباهُ بكثير من البر والمعروف ، وقد شاء حظ الديب أن تصرف الوزير عن لقائه بمنزله صوارفُ العمل أو المرض ، فتلاحى مع خادم حديث عهد بالدار لم يكن يعرف الديب ولا سمع به من قبل ، فأغرته رثاثة هيئة الشاعر أن يكيل له اللكمات ويُلقى به فى الطريق ، وأحسب أن للخادم عذره فى هذا ، فإنه لم يرَ ــ على كثرة ما رأى ــ أن يستقبل « معالى الوزير » فقيراً له مثل هذا السَّمت ، ولعله أخيراً حمد لنفسه أن لقَّن الشاعر درسـاً لا ينسى ، وحينئذ لم يجد المسكين آسيا لجراحه التى زادت وجهه تشويها إلا أبياتاً يهجو بها الوزير والخادم جميعاً :

قصدتُ إلى بابكَ المُوصَدِ   فَطُورِدْتُ بالخادم الأسود

www.alkottob.com

غـلامٌ يمثل حظّى لديك وقلبَكَ فى البيت والمعبد
كأنّى حين طلبت النّدَى إليكَ طلبتُ يَدَ المُعْتَدى
لقد عشت يارب حتى رأيـ ـتُ من الناس أقسى من الجَلْمَدِ
فخذنى إليك وأنت الـكريـ ـم ، وقد ضقت بالزمن الأَنْـكَدِ
ولستُ أرى البؤس عاراً إذا رأيتُ إبَاَئِى به مُسْعِدِى

وقد كانت هناك طائفه تؤثره بالود والمحبة ، وتحوطه بفيض من البر والعطاء ومن هؤلاء المرحومان الأديبان حفنى محمود وابراهيم دسوقى أباظه والمرحوم الشاعر حسن القاياتى والـكاتبان الفاضلان « مصطفى » كامل الشناوى ومصطفى أمين وكانوا معه إلى جانب برهم به يداعبونه فى عبث برىء حينا ، وحينا آخر فى عبث غير رفيق ، وغايتهم من ذلك : الدعابة المستحبة لتكون وسيلة للظفر بقصيدة تصور مزاجه الحاد ، أو روحه المتجهم الشَّرُود ، إلا أن دعاباتهم تلك كانت فى جل أمرها تصيب وجه الشاعر بلـكمات قوية تصوبها يد محنق كانوا قد أوحوا إلى الديب أن يهجوه فأطاعهم دون أن يقدر النتائج ، أو يتبصر عاقبة الأمر الذى يأتيه ، حقاً لقد كان الديب طفلا كبيراً مع هؤلاء الظرفاء فقد كانوا إذا ترفّقوا به فى دُعاباتهم تلك ، اكتفوا منها بأن تثير حوله تهديداً ممن يتناوله بشعره ، يفزّع عليه فى الحياة أمنه ، ويُسْلمه إلى مايشبه القلق من توقع الأذى وارتقاب العدوان فى كل صباح ومساء!!.

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

ويعتبر الأستاذ كامل الشناوى بحق فارس الحلبة فى هذا الميدان ، فقد كان الديب يحمل له الحب والخشية معـــا ، وما كنت أسمعه إلا شاكرًا عطفه عليه إبّان محنته لأنه أطعمه وأسكنه ، أو ساخطا عليه حين يتذكر له « مقالبه » التى أصابه من جرّائها ما أصابه ، ولهذا فقد كان للشناوى فى شعر الديب أكثر من موضع يلتقى فيها الشكر وعرفان الجميل بالهجاء الموجع والتجريح المقذع ! ! .

* * *

وقد يحب القارىء ــ مع الاعتذار للأستاذ كامل ــ أن يظفر كذلك بشىء من هذين اللونين ، فإن فيهما إمتاعا وطرافة ؛ قد تستريح لديهما النفس وتنبسط منهما الأسارير ، ذلك لما فيهما من تناقض ديبى مستحب ، فهو فى هذا الشعر يجعل المدح مقرونا بالهجاء ، ويسوق الشكر إلى جانب السخط والحسد ، وذلك أنه لا يستطيع أن يكتم الثورة الجامحة التى يجدها فى نفسه ، لأنه يرى الأستاذ الشناوى غارقا ــ كما يقول الديب ــ فى مَتاع قد اشتراه بالمال الذى يطلب بعضه فلا يجد منه شيئا ، وكأنه يريد أن يقول له : لو كنت غنيا مثلك لظفرت بهذا المتاع الذى يمكن أن يُشترى فى غير مشقة أو عناء .

وهذه قصيدته التى تجمع ماأشرنا إليه من تناقض نظمها وأهداها إلى الأستاذين مصطفى كامل الشناوى ومصطفى أمين وقد استهلها بقوله :

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

نَسِيتُ اسْمِي وحظى والليالى وَعِشْتُ عَلَى التَّوَهُّمِ والخيال

ثم مضى يمتدحهما :

« ومصطفيان » فى عليا يَرَاعٍ يصيد بسحره البيض الغوالى
وما أنساهما خُلُقاً ونبلا فكم عطفا وكم رثيا لحالى

ثم لايلبث أن يتحول إليهما ليقول :

ويجتمع « البدين » إلى « طويل » غَنِيٍّ من أسى الأيام خالى
وبين يديه واحدة العذارى شَرَى يَدَهَا بكأسٍ أو بمال
تُغَمْغِمُ إذ يُقبِّلها استِياءً كأنَّ الفِيلَ يَعْبَثُ بالغزال

وسنواصل الضحك مع الديب ، فلو أننا شئنا ذلك لضحكنا أياماً وأياماً ، ومن حق أنفسنا علينا أن نجدّد نشاطها بالابتسام ، وأن نرد إليها صفاءها بالمرح ، فاطالما أبكاها عبد الحميد الديب ، وهو سيعتصرها حزناً كلما وقفتْ تتأمل مصارع حظه العاثر ، أو شهدتهَ يَئِن فى مأتم محنته الأليمة .

والديب كما كان عبقرياً فى حزنه كان كذلك عبقرياً فى مرحه ، أو إن شئت فقل : إن الحزن والمرح كانا جزءاً من طبيعته ، فلستَ بمستطيع أن تعيش فى فنه كئيباً من غير أن يغالبك الضحك أحياناً ، ولست بقادر كذلك على أن تمضى فى سرورك معه بدون أن تجزع من

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

أجله أو تأسى ، فالديب ـ كما أرى ـ ينفرد بأنه صاحب المرح الهادف إلى المأساة ، ويمتاز بأنه صانع الحزن المقهقه بالمهزلة ، فابتسامته أبداً يترقرق فيه الدمع ، ودموعه دائماً يمازجها لون من الضحك الساخر المرير . ، وقديماً قيل : شر المصائب مايُضحك .

ولقد كان الديب فى إفصاحه عن أحزانه ومسراته بمثابة الممثل الصادق أو الرسام البارع الأمين ، فهو يعبر عنهما فى قوة أداء وصدق تصوير ، ويرسم ألواحهما من أصيل الموهبة وصادق الأحاسيس ، لأنه ما كان يعيش إلا مع نفسه ، وما كان يطيق التعبير إلا عنها ، فحديثه إلى الناس ـ دامعاً كان أو باسماً ـ ليس له من موضوع إلا ذاته هو بما تنطوى عليه من آلام أو تحس به من مسرة ، وما رأيت الديب فى شعره يتسلّق أسوار نفسه ليسترق السمع أو يتجسس على نفوس الآخرين ليُمتع عشاق الأدب بتصوير مايجول فيها من مشاعر وخلجات لأنه يراها غريبة عنه ، ووافدة من غير آفاقه ، وهى فوق ذلك لاتستمد وجودها من ذاته ، ولا تسبح خطراتها فى فلك تفكيره ، والديب له من أحاسيسه الخاصة فيض لاينضب ، وحشد لايتهى ، ومن كان هذا شأنه فهو غنى عن أن يستعير من خارج وجوده ، أو أن يَميل بفنه عن تصوير نفسه التى يهدر فيها سيلٌ عارم من المشاعر القوية والأحاسيس الفوّارة الهادرة بالآلام والسخرية .

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

ولعلك واجد كل هذا أو جُلّه فيما سأمتعك به من فكاهات الديب ، وسترى فيها أنه ما كان يسوقها على أنها فكاهات وطُرف فحسب ، وإنما كان يشير بها إلى هدف يقصده أو يعبر بها عن ألم يُمِض نفسه ويعتصر فؤاده .

* * *

حين تدلف إلى مقهى الفيشاوى فى حى الحسين ، تجد أمامه حلاقاً يسمى الحاج محمد شعبان ، وكان يألف الشاعر ويقص له شَعره ويُقرضه وقت الحاجة ، وقد ادخره عبد الحميد «للزمن» ، وطفق يمتدح فيه الأريحية لِيَسْتَبْقِيها لديه ، وكان الرجل كلما ترامى إليه إطراء الديب ، يلتقطه قَسراً من المقهى ليقص له شعره ، ثم ينفحه قرشين أو ثلاثة استجلاباً لمدحه ، وتشجيعاً له على الحديث عنه أمام الناس ، فإن فى ذلك ضرباً من ضروب « الإعلان » عن فن الرجل وإذاعة حذاقته بين الناس ، وقد حلا للشاعر يوماً أن يمتدح مقصه ومرآته وثرثرته وموساه ، فنظم هذه الأبيات الرقيقة الفكهة :

أَخِى ، وجارى ، وَحلّاقى ، وَدَيَّانى ... وَمُمْسِكِى إنْ أَمالَ الدهرُ ميزانى
مقصه حالقٌ للشيب يَمْحَقُهُ ... وحالق بالحديث الْغَثِّ أحزانى
مقصه قصص صدق وراوية ... كَمْ قَصَّ شِعْرِى على صحبى وخلّانى

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

مرآته زينة للعين ساحرة مُوساهُ أفضل من «موسى بن عمران»

فإذا اعترض على الشاعر معترض : « بأن موسى نبى أتى به القرآن فلا ينبغى أن يناله أحد بمثل هذا » ، أجاب صاحبنا كاذبا على التاريخ : بأنه يعنى « الأوسطى » موسى بن عمران نقيب الحلاقين بمصر فى عهد الحملة الفرنسية ، ثم يحاول أن يدعم ذلك بالدليل ، فيضيف: إن «الجبرتى» ذكره فى كتابه على أنه بطل من أبطال المقاومة الشعبية ، فقد حلق بموساه مائة رقبة فرنسية فى يوم واحد .!

* * *

وقد أتيح لعبد الحميد أن يظفر مرّة بمبلغ « محترم » من الإذاعة المصرية ، فدعانا وكنا ثلاثة إلى الغذاء ، فاخترنا مطعما فخما يُبالغ فى أثمان أطعمته ، ولما فرغنا من تناول ماشتهينا دفع الديب ثمنا لم يكن يتوقعه ، ولكنه على الرغم من فجيعته تلك تماسك أمامنا فى تجمُّل ، وأظهر لنا أن هذا المطعم معتدل فى أثمانه إلى حد بعيد ، وأظهرنا نحن من جانبنا أننا قد اخترناه لهذا الاعتدال الذى يَرى .

وقد وقف الخادم أمام ثلاثتنا يسرف فى تحيتنا ، ويبالغ فى وداعنا ، والديب يقف وحده قريبا منا لم يُشِر إليه بكلمة ولم يتوجه نحوه بمجاملة ، فغِيظ لهذا التجاهل المقصود ، وأشار للخادم فى صلف يحسنه

www.alkottob.com

أحياناً ، فلبّى الخادم إشارته فى تثاقل ، فلما وقف أمامه قال له مشيراً إلينا : هؤلاء كانوا جياعاً فأطعمتهم من مالى ، فكيف تحترمهم من دونى وقد وهبتك منحة سخية ؟! ، فاضطرب الخادم وأخذ يعتذر إليه ، ولكن أحدنا همس فى أذنه بألاّ يكلف نفسه مشقة الاعتذار فإن صاحبنا خارج اليوم من مستشفى المجاذيب ، فهز لنا الرجل رأسه ، وكأنه يريد أن يقول : إنه بذكائه قد اعتقد هذا حينما دخلنا المطعم ! ، فلما علم الديب بما همسنا به فى أذن الخادم لم يزد على أن قال « ومع ذلك فأنتم تُنكرون علىّ أن أهجو أمثالكم من الناس » .

* * *

وصحبت الشاعر يوماً إلى منزل المرحوم طاهر حزين ـ طيب الله ثراه ـ فأحسن لقاءنا وبالغ فى إكرامنا ، احتفالا بالديب ، وفرحاً برؤيته ، وكان قد طلب إلىّ ذلك حين أصغى إلى شعره وأعجب برائع فنه ، وقد راعه أن يرى الشاعر هكذا يرتدى رداء رثاً وينتعل حذاء باليا ، وكان أن خلع عليه « بدلة » أنيقة مما يلبس ، وقدم إليه حذاء صيفيا جديداً لم ينتعله إلا مرة أو مرتين .

وقد كان لهذه المنحة التى ستجدد شباب الديب أثرها العميق فى نفسه ، فقد كان موقنا أنه حين يرتديها سيُشبع الناس احتقاراً كما أشبعوه ،

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

وأنه سيحملهم بها على أن يحسدوا نعمته التى يرفل فى حلتها ولو إلى حين ، فمن يدرى ؟ فقد لاتمضى أيام حتى يضطر الديب إلى بيع الرداء والحذاء بأبخس الأثمان ! .

وقد كان الوقت صباحا حين طلع علينا الديب فى بزته الجديدة التى أنكرناها عليه ، فهو قادم من بعيد على مهل وفى خيلاء ! ، يمشى وئيداً فى قصد واعتدال ، ثم حيّانا فى إيجاز وكبرياء ، وجلس إلينا واضعا ساقا على ساق ، ونعله الجديد يكاد يصافح وجوهنا ، أو يمس ثيابنا ! ، فلقد ضاق بما كان من دأبه كلما جلس إلينا من دس قدميه وهما فى حذائه المخرق تحت المقعد الذى يجلس عليه .

فأقبلنا عليه نتملق كبرياءه ونستنزله من سماء صلفه إلى أرض تواضعنا ، ليتاح لنا أن نسأله عما استحدث من جديد ، فزم شفتيه فى إباء وشمم ، وأشار إلى حذائه اللامع الذى نرى ، وما لبث أن انفجر ضاحكا وعاد إلى طبيعته الأصيلة التى نعرفها فيه . ثم أنشدنا مشيرا إلى حذائه الجديد :

نَعْلٌ تَعَالَى عن الإكبار وَالعِظَمِ ... تَوَّجْ به الرأس لَا تَلْبَسْهُ فى القدم

لَوْ كَانَ فى رِجْل (موسى) يوم موعده ... لكان أقدس من وَادٍ ومن عَلَم

فإذا أنكرت عليه البيت الثانى . . وعظنى فى عنف أن أنصرف عن فهم شعره إلى الاستزادة من تفهم ألفية ابن مالك ! .

www.alkottob.com

الفصل السادس

الشاعِرُ الأجيرُ

www.alkottob.com

www.library4arab.com/vb www.alkottob.com

يذكر كل من يعرف الديب أنه كان يلقاه كل صباح وفى مقلتيه بقيّة من نوم ثقيل عزَّ عليه أثناء الليل ، فجفناه أبداً ذابلان متكسران ، والكرى يعبث بهما عبثا لا هوادة فيه ، وأنّى لهذا الشريد أن يذوق طعم الكرى الهنىء ، فهو إذا قبع على مقعده بالقهوة ، يصيح « الجرسون » عن عمد إلى جواره بهذا النداء المزعج : « تلاته شاى مزبوط واتنين حمّى على الشيشة وصلحهم » ، ليفزع هذا النائم الذى لم يدفع له «بقشيشا» ، وإن استلقى قبل الفجر فى مسجد فإن فى مطارق الخدم مايعكر عليه صفو النوم ، ومايحرمه حتى من ضجعة قد تخفف عنه بعض مايجد من تعب وإجهاد .

وتلك فترة قد طال أمدها على الشاعر حتى لكم تمنى الخلاص منها بالموت الذى لا يتمناه أحد ، فقد كره أن يعيش هكذا مشردا ذليلا ، ومن ثم آثر أن يصانع الحياة بعض الشىء حتى يجد حجرة يأوى إليها إذا مامسّه اللغوب وآده التطواف .

* * *

وكان فى حى الأزهر رجل ذكى قد انتحل لنفسه لقب « طوالع الملوك » ، وهذا الشيخ يقصده كثير ممن يحسنون الظن به ليرد إلى بعضهم أزواجهن أو زوجاتهم ، أو ليطلع بعضهم الآخر على مايخبئه لهم

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

القدر فيما يتصل بعواطفهم أو فيما يتعلق بشأن من شئون دنياهم ، وكان هذا الشيخ من أذكى مَن عرفت فى قراءة ما يدور فى النفوس ، ولهذا فهو حين مايبدأ « زبائنه » مشيرا ـ إجمالا ـ إلى مشاكلهم التى يلقونها أو عارضا ـ من بُعد ـ إلى مايدور فى نفوسهم من متاعب قد قدموا من أجلها تراهم حين يكاشفهم بهذا تتفتح قلوبهم له فى خشوع وإذعان ، ويقبلون عليه إقبالهم على من تكشفت عنهم الحجب أو ملكوا أَعنَّة الغيب ! .

ولم يفت الشيخ أن يُصدر إلى جمهوره كل عام « نتيجة » يضمنها نبوآته الخاصة عما سيقع فى العام الجديد من أحداث سياسية واجتماعية لا فى مصر وحدها بل فى العالم كله من أدناه إلى أقصاه ، ولكى تثير هذه النبوءات خواطر العامة وتجتذب قلوب من إليهم ينبغى أن تصاغ فى قالب شعرى يشوبه الأبهام وتلابسه التعمية ، بحيث يعرض أسلوبها إلى الحوادث المرتقبة عرْضاً أبعد ما يكون عن الجزم بشىء معين قد يقع فى المستقبل غيره أو تجرى الأيام بما يكون على النقيض منه تماما .

وهنا يجىء دور الشاعر من هذا الحديث ، إذ تدفعه الحاجة الملحة دفعا إلى أن يتقدم إلى الشيخ ليعرض عليه موهبته الشعرية على أن يسكنه ويعينه بشىء من المال ، ولكن الشيخ ذكى كما قدمنا ، فيعرض

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

من جانبه على الديب شروطا قاسية فيها كثير من الظلم والأجحاف بالشاعر المضطر ، فالمسكين مطالب أن ينظم أشياء تندُّ عن طبعه لأنه لا يفهمها ، ومطالب كذلك أن يستقبل « الزبائن » فى حجرة الاستقبال ليقص عليهم طرفا من كرامات الشيخ قبل أن يدلفوا إليه فى حجرته التى أسدلت عليها الستائر « وأطلق فيها البخور » لتهيئة جو يُشيع الرهبة فى النفس و يدنى إليها أن تصدِّق كل ما ترى أو تسمع .

* * *

وكان الشيخ يلقى نظرة على الوافدين من حيث لا يرونه ، وكثيراً ما كان ينفذ إلى دخيلة نفوسهم فيقع حدسه لذكائه وتجربته قريبا مما قدموا من أجله ، ثم يوحى إلى الديب أن يتحدث إليهم بما يقع فى نفوسهم موقع الرضا ، ومايزل فى قلوبهم منزل القبول والتسليم ، فهؤلاء قوم سذج بسطاء قد اتجهوا بعواطفهم إلى ساحة الشيخ ، وتركوا من خلفهم عقولا تتلمس طريقها على هدى ما ترسمه عواطفهم المشبوبة بحب القطب الواصل ، فإن إيمانهم بصلاح الشيخ قد استقر لديهم ، وثقتهم بتوجيهاته « اللّدنية » أصبحت عندهم حقا لا ريب فيه .

والديب حين يؤمر « بتحضير » هؤلاء السذج البسطاء ما كان يجد فى الحديث إليهم عنتا ولا رهقا ، لأن أسرار الشيخ كما قدّمنا تملك عليهم عقولهم ، وتصرفها عن تمحيص مايسمعون من كراماته وأسراره .

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

فإذا جلس إليهم الشاعر ليؤدى دوره الذى أريد عليه ، استيقظت فيه سخريته اللاذعة ، وتحدث من جانبه المتهكم ، فهو يبدأ الحديث معهم : « بأنه قد وهب نفسه لخدمة الشيخ ، وجندها لتكون طوع أمر فضيلته ، وكل ذلك يقصد به ابتغاء مرضاة الله بعد أن رآى منه مارآى ، فلقد أبصره مرة يذبح غرابا ويُسيل دمه الأحمر القانى على الأرض ، ثم يقطع رأسه ويرميه بعيدا عن الجسد الهامد ، وما هى إلا أن يقرأ شيئا من كتاب الله ويأمر خادمه « شمهورش الأكبر » أن يَمْثُل بين يديه ليحيي الغراب بإذن الله ، حتى يُذعن « الجن » لأمر الشيخ . . فيدخل الحجرة على هيئة دخان وزوبعة » . وإلى هنا يحلو للشاعر الساخر أن يمسك عن الحديث عامدا منصرفا عنه إلى البحث عن « علبة السجاير » التى يزعم أنه قد اشتراها منذ لحظات قبيل قدومه لزيارة هذا « القطب الباتع » ، والديب لاينسى فى هذا «الفاصل» الذى افتعله افتعالا أن يلقى نظرة راحمة على أولئك السذج المبهورة أنفاسهم والمأخوذين بطول باع الشيخ « وباتع » أسراره . . وهذه النظرة الراحمة تعيد إلى الشاعر اعتزازه بعقله وترد إلى نفسه بعض العزاء والسلوى فيما يجد من شئونٍ فى حياته الأليمة ، فإذا ما أسرف الديب فى بحثه عما فقد ، وأمعن فى صمته عن إكمال قصة الغراب الذبيح . . امتدت أيدى الجالسين إلى « الجيوب » ، فهذا يقدم إليه علبة تبغ كاملة ، وذاك ينفحه بثمنها

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

ضعفين تعجُّلا لبقية القصة التى استولت على ألبابهم ، وسحرت منهم القلوب .

وحينئذ يبتسم الديب فيما بينه و بين نفسه ، ويكتم قهقهة ساخرة يُغالبها مكرها حزينا ، فهو وإن يكن قد ربح شيئا ، إلا أن طوالع الملوك سيربح ولا ريب أشياء وأشياء . . ! ! ، ثم يصل الحديث بالروح الذى كان قد بدأ . . «ولقد رأيت وجه الشيخ وهو يستدعى خادمه شمهورش مشرقا كل الأشراق .. وسمعت صوته الآمِر وفيه رنّة الثقة والاعتداد ، ولكم تملكتنى الرهبة واستولى على الذعر حينما أشار سماحته بأصبعه اليسرى قائلا لخادمه : قل للغراب قم بإذن الله وطرْ إلى عشك ، فقد رأيت بعينىّ هاتين الرأس الملقى بعيداً يزحف إلى مكانه من رقبة الغراب ، ثم وقف الغراب ونفض جناحيه وطار كأنه السهم من هذه الحجرة التى تجلسون بها أيها السادة . . !! » .

أما إذا كان الزائرون على شىء من الفهم والذكاء ، فإن حديث الشاعر إليهم يدور حول كراماته المعنوية ، وأسراره الإلهية ، وهؤلاء مع ذلك يُخدعون بهذا اللون من الحديث خديعة لا تقل شأنا عما كان عليه السذج والدهماء ، ولا عجب فى هذا فكل أمور الشيخ طوالع الملوك كانت تجرى فى كثير من الكياسة والدهاء .

* * *

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

وأذكر أننى قلت للديب يومئذ : وهل أنت راض عن وضعك مع الشيخ ؟

فقال : لا أملك إلا الرضا ، فلست فى الموقف الذى يسمح لى أن أعتنق قول الشاعر :

إذا وقع الذباب على طعام كففت يدى ، ونفسى تشتهيه
وتجتنب الأسود ورود ماء إذا كان الكلاب وَلَغْنَ فيه

فتلك عِزة نفس قد عرفت معنى الشبع ، أما أنا فجائع يروم أن يُمسك حياته بلقيمات حتى ولو كانت من يد طوالع الملوك ، وأنا ياصديق أعتنق دائما قولى :

وفى قسمة الأرزاق عَدْلٌ .. وإنما هنالك سِرٌّ فى السماء وطلسم
فَيَارُبَّ محروم من الرزق مَحْلُهُ لكل عباد الله خير وَأَنْعم
وَرُبَّ حَظِيظٍ ليس يدرى غباؤه أجنة خلد عيشة أم جهنم ! !

ولعلك لم تنس أننى القائل :

رَفَعْنَا حِجَابَ الشمس، أين سَنَاهَا؟ وَدِنَّا رياض الخلد ، أين شذاها ؟
تَجَافَتْ بنا الدنيا ونحن سَرَاتُهَا وضاقت علينا أرضها وسَمَاها
ومن يُرْمَ بالدنيا الفقيرة فليكن على الرغم منه أُمَّهَا وأباها . . ! !

فقلت : وكيف ستطيق نظم مالا تفهم من تنبؤات ؟ فروّى

www.alkottob.com
www.library-arab.com/vb

قليلا . . وأجاب :

كما أسمعك الآن مالا يمكن أن يُفهم ، وأنشد ، وقيدت ماأنشد :

« وَمِيمٍ » يُوَاتِيهِ الهنا بوزارة وَيَأْفُلُ نجم «الْعَيْنِ» من فَلَكِ العُلاَ
وَيَغْلِبُ «ثَوْرٌ عَقْرَبًا» بِقِرُونِهِ وفى «أَسَدٍ» تعلو الحروب على المَلاَ

ثم أضاف الديب : والحياة مع طوالع الملوك أفضل بكثير مما كنت أحيا فى « دار المأمون » ، فلقد كنت أعمل بها فى إخراج كتاب « عصر المأمون » للأستاذ فريد رفاعى لقاء جنيهات ثلاثة أتقاضاها كل شهر ، ولا يُؤذن لى بالخروج من الدار إلا نصف يوم فى الأسبوع ، فلأن أبيع موهبتى لطوالع الملوك خير من أن أبيع موهبتى وحريتى كما بعتها لدار المأمون .

* * *

أقطع الشيخُ الديبَ حجرة « بالدويدار » فى حى الأزهر ، وهى حجرة فى أعلا المنزل ، والمنزل فيما أظن من بناء المماليك البرجية ، فهو خاشع خشوع الشيخ أمام زائريه . . ومتواضع تواضعه فى لقاء المعترفين بنفحاته والعارفين ببركاته ونسكه ، وقد انتقل إليها الشاعر وهو « الرياش والأثاث ، والغطاء والفراش » كما يقول ، ولكن ليس للديب أن يصعد إليها كلما شاء ، بل له أن يصعد حين ييأس الشيخ من توقُّع

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

زائر ، أو حين يأذن له هو أن يصعد ، فإذا افترش الشاعر ما كان يحمل تحت إبطه من صحف بالية ممزقة ، و إذا استلقى فى زمهرير الشتاء فى قميص ليس تحته إلا جِلده ، لأن « الجاكتة » كانت فراشا أو وقاء له من البرد ـ على حد تعبيره ـ ، حينئذ يختلى بنفسه الشاعرة التى تجيش وتضطرب مما مرّ بها فى يومها مع الشيخ و يحاول جهده أن يسرِّى عنها ، وأن يمسح عليها فى رفق وحنان ، ولكنه حين يفتح عينيه على الواقع الذى يرى لا يملك إلا أن يهتف معها :

أَفِي حُجرتى يارب ، أَمْ أَنا فى لَحْدِى ... أَلاَ شَدَّ ما ألقى من الزمن الوغد
وهل أنا حَىٌّ أم قَضَيْتُ ؟! وهذه ... إهَابَةُ إسرافيل تبعثنى وحدى
لَكم كنتُ أرجو حجرة فأصبتُهَا ... بناء قديم العهد أضيق من جَدى
تَرَانِى بها كل الأَثَاثِ ، فمعطفى ... فراش لنومى أو وقاء من البرد !!
وأما وِسَادَاتِى بها فجرائد ... تجدد إذ تَبْلَى على حجر صلد
فَأَهْدَأُ أنفاسى يكاد يَهُدُّهَا ... وأيسر لَمْسٍ فى بنايتها يُرْدِى
تساكننى فيها الأفاعى جريئة ... وفى جوها الأمراض تفتك أو تعدى
أرى النمل يخشى الناس إلاّ بأرضها ... فأرجله أَمْضَى من الصارم الهندى
تحمَّلتُ فيها صبر « أيوب » فى الضَّنَا
وذقت هُزَالَ الجوع أكثر من « غاندى »

www.alkottob.com

جِوارك يا ربى لمثلى رحمـــة فَخُذْنِى إلى النيران .. لا جنة الخلد!

فإذا جاء العيد وهو بهـا يشكو ألما حادا فى أسنانه توهَّم ـ وهو فى هذا شاعر ـ أن أهله قد وفدوا إليه فى العيد من كمشيش يحملون إليه الهدايا ، ويمسحون على جراحه ، فإذا هرع إلى الباب للقائهم وجد رياح الشتاء الخليعة تعبث بباب حجرته ، ولـكنه يـكذب نفسه ويخدعها ارتقابا لما توهم من لقاء الأهل والأحباب ، فيفتح الباب مرة .. ومرة .. ومرة على أمل أن يعانق أخا . . أو يحتضن أختا . . وفى كل مرة كان يُعانق الوهم ويحتضن الوحشه وكواذب الآمال .

وكأنى به وهو يمسك أضراسه بكلتا يديه ليعود إلى فراشه الخشن يجهش قائلا :

مَنْ زَائِرِى فى العيد؟ مَنْ بالباب ؟ وَهْمٌ فقدتُ به رشيد صوابى
من ذا يُطَالِعُ سِحْنَةً مُغْبَرَّةً فـكأنّها لُعنت بكل كتاب
ياحجرتى ماعشتُ أَحْبُوكِ الرضا فلقد حجبتِ عن الورى أوصابى
فعلى ثَرَاكِ عَفَرْتُ جسمى نائما كثرى الْبَقِيعِ لعابد أَوَّاب
ووقيتِنى فى مدمعى وشكايتى أذْنَ اللئيم ، ونظرة المرتاب
من زائرى فى العيد ؟ من بالباب ؟ وهْم فقدت به رشيد صوابى

وفى مرضه هذا أشفق عليه بعض أصدقائه وكان الشتاء قاسيا

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

مريرا ، فحمل إليه غطاء باليا هو كل ما استطاع أن يحمله إليه ، حتى يتقى به صولة البرد فى مرضه ذاك ، وقد فرح الشاعر المريض بهذا الغطاء أيما فرح ، ولكنه لم تمض أيام حتى عدا على هذا اللحاف لص فقير حرم الديب من دفئه ، وفجعه فى أعز ما كان يملك ، وهنا نجد روعة التصوير وبساطة التعبير فى شعره ، وهو يرثى هذا اللحاف العزيز :

لِحَافِى ، وهل غير الْهَبَاء لحافى ؟ بَقِيَّـةُ نَسْجٍ دَارِسٍ وَنِدَافِ
أطافَ به لِصٌّ فقير كعيشتى فَيَا بُؤْسَهَا مِن هجرة ومطاف
فليتَك يالص الجرىء وجدتنى غنيًّا وسعدِى فى الحياة موافى
وياليتنى ما كنتُ صيدكَ إنّما سرقتَ لحافى جاهداً وشغافى
ويا ليتنى دون اللحاف ضحية فَإنى صديقٌ فى الحيـاة مُوافى
فَـكَمْ ليلةٍ تحت اللحاف قضيتُها أُسَامِرُ أحلامى وَطَيْفَ سُلافى
وكم ذا وقانى البرد فى جُنْحِ ليلة بها الموت من كل المواجع شاف
لقد ضاع منى ذا الغطاء ، فهل ترى أُدَثِّرُ شعرا ضَافِياً وقوافى ؟ !

ظل الديب فترة من الزمن فى كنف الشيخ طوالع الملوك ، والحياة تحلو له فيها تارة وتمر له تارات ، وهو فى حلاوتها ومرارتها قلق النفس موصول الألم والحقد على الحياة والناس جميعاً ، فكأنه لم يستطع أن يظفر من نفسه بالمعاذير التى تبرر لمثله أن يُقيم على مثل هذا الضيم ،

www.alkottob.com

أو يُمرِّغ مواهبه الرفيعة فى هذا الوحل المهين ، فأخذ يلتمس الملجأ لدى ذوى الجاه والغنى ، فمضى يمدح هذا ويعرض بؤسه على ذاك ، وحين ييأس من عونهم ، ويفجعه إعراضهم يرميهم بالهجاء الذى ينسخ مديحه فيهم ، ويشفى نفسه من صلفهم واستعلائهم عليه ..

والحق أن الديب كان منطقياً فى بعض أحواله ، فهو حين يقارن بين هؤلاء الذين أعرضوا عنه ممن يأكلون الذهب ويلبسون الحرير وبين طوالع الملوك يلجُّ فى لعن الأولين ـ وفيهم رؤساء وزارة سابقون ـ ويُغرق فى تمجيد الشيخ ويحمد له قروشه وحجرته ؛ وإنى أسوق إلى القراء طرفاً من هجائه لرئيس وزارة اشتهر بالغنى والكرم كان الشاعر قد مدحه ، فلما لم يظفر منه بما كان قد قدّر لنفسه توجه إليه بقوله :

قَالُوا : كَرِيمٌ ، قلتُ : مابرهانكم ... الكفُّ معطية هى البرهان
فالله لو لم يَحْبُنَا بعطائه ... ما كان إيمانٌ ولا أديان
قُلْ لِلَّذِى أطريته فأدنته ... منى الجميل ومنكمو الشكران

وهذا رئيس وزارة سابق قد زيَّن أتباعه للديب أن يطرى « زعامته » حتى يثاب من لدنه ثواباً قد يبدل حياته كلها ، وقد ينتشله مما هو فيه من ذلة وهوان ، فلما استجاب الشاعر إلى مازينوا له ، ذهب فأنشد بين يدى « الزعيم » قصيدة مدح رائعة كان المسكين قد أُكْرِه على نظمها ، ومطلعها :

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

إن الذين يُبَايِعُونَكَ إنّما يجدون فى الزُّلْفَى لغيرك عارَا

فما زاد « رفعته » على أن صفق للديب . . وكان التصفيق هو الثواب الذى وُعد به من قبل ؛ وعندئذ هجاه المفجوع فى آماله بقوله :

رَاجِعْ زمانك أيُّهَذَا الْكأسُ فاليوم لا نَحْسٌ ولا . . . .
لم يَبْقَ من مجد الزعامة كُلِّه إلاّ قميصٌ أزرقٌ وَلِبَاسُ

* * *

وحين يئس الشاعر من الحكومة والشعب بدأ يستعدى الفقراء على نظام الإقطاع ، وأخذ يستنهض همم الجياع أن يبطشوا بالحكومة ، وأن يَنْتَقِضُوا على حكمهم الجائر ، ذلك أن الحكومة كانت قد سنت تشريعاً حرمت به أكل اللحم يومين فى الأسبوع ، فوجد الشاعر أن الفرصة مواتية ليطلق صرخته إلى الفقراء المحرومين من الفلاحين الكادحين والعمال المستضعفين ، فكانت صرخته التى أرسلها :

« كُلُوا » الحكومة ، أَوْ مُوتوا من الجوع
صوت الضعيف المُرَجَّى غير مسموع
مَنْ حرَّموا اللحم فى يومين ، هَلْ علموا
أَنْ ليس فى حُكْمِهِمْ زَيْدٌ لتشريع ؟
حكومة الفقر والأيام قَبْلَهُمُوا على الورى حَرَّمَتْهُ أَلْفَ أسبوع ؟!

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

وهكذا مضى الديب فى ثورته على الحكام والأغنياء غير مبال بما قد يصيبه من بطشهم وجبروتهم ، أو لعله كان يلتمس الخلاص مما هو فيه من بؤس وتشريد بهذا الأسلوب القوى الحازم ، فإن السجن فى رأيه ـ أحياناً ـ أخف عليه وطأة من هذه الضيعة التى لا يجد لها نهاية ، ومن تلك الحياة التى لا تليق بشاعر موهوب .

* * *

ولظروف لا أعلمها . . ولم أشأ أن اسأل الديب عنها ، وجدته يدلف من جديد إلى طرقات القاهرة كما كان شريداً من قبل ، لأنه فقد حجرته عند طوالع الملوك ، ولكنى ألقيته هذه المرة يعقد العزم فى تصميم وإصرار على إيجاد حجرة أخرى بأى ثمن ، فقد كره أن يثقل على أصدقائه ، أو يظل هائماً طوال يومه يتسكع فى المقاهى والطريق ، وفجأة رأيته يرتمى فى أحضان « حزب مصر الفتاه » فقد اتخذه الحزب شاعره الذى ينافح عن مبادئه ، ويتحدث إلى الأمة بأهدافه ، ويستحث الشباب أن ينضووا تحت لوائه ، وأن يتخذوا من « القميص الأخضر » شعاراً وطنياً ، وقد نُشرت للديب قصائد شتى فى جريدة الحزب معظمها يدور حول هذا المعنى الذى أسلفت وإن تكن فى جملتها مطبوعة بطابع الحزن ، وفى بعض أبياتها قتام حالك مما يغشّى روح الشاعر ويلف قلبه المُلتاع .

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

والذى أعلم : أن الديب لم يكن مؤمنا بمبادىء حزب مصر الفتاة ولا راضيا عنها ، لأنه كان كافراً بجميع الأحزاب وناقما منها أساليبها التى لم يطق إحسانها ، ولكنها الحجرة لعنها الله قد أرغمته على التغنى بحب ما يكره ، وأن يعتنق مذهبا لا يجد صداه فى وجدانه ؛ والحق أنه كان فى أعماقه يحمل السخط للحزب ، بل وينطوى صدره فى أمر زعمائه على كثير من التهكم اللاذع والسخرية المريرة ، وذلك حين صارحه بعض رجاله بأنه خليع مستهتر . . ولو أنه أصلح قليلا من أمره فإن الحزب سيتخذ منه اللسان المعبِّر عنه ، بل وسيجعل منه فى مصر الشاعر الأول ، وربما يختاره « عضواً » فى الوزارة التى ستنقاد لهم لا محالة بعد قليل . . وكان الديب وهو يقص علينا نبأ هذه « النصيحة العليا . . والتوجيه الحكيم . . » كما كان يسميه يضحك فى مرارة وسخرية ، وينشدنا قول الشاعر :

والناس مَنْ يَلْقَ خيراً قائلون له ما يشتهى،وَلِأُمِّ الْمُخْطِىءِ الْهَبَلُ!

ثم يتوجه إلى أحدنا ليسأله : « وماذا عسى أن يكون سَمْتِى وأنا وزير للأشغال مثلا ، حين يرتدى « مَعَالِىَّ » القميص الأخضر والطربوش الأبيض . . ؟؟ ، إن أول ما سأفعله ــ ويشير إلىّ ــ أننى سأرفض لقاء هذا العبد الزنيم . . احتقاراً له . . وتهوينا من شأنه ، فأسرع إليه أَرُدُّ العدوان قائلا له : ولكن « معالى » الوزير فيما أظن

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

محتاج الآن إلى « سيجارة » . . وكنا بهذا اللون من الدعابة المستحبة نختم دائما أحاديثنا التى أودّ بجدع الأنف لو أنها تعود .

والطريف فى أمر الديب حينذاك ، أنه لم يكن برِما بوضعه الجديد فى الحزب ، فقد قنع راضيا أن يقدِّم لصحيفته اللون الذى تريد ، لا اللون الذى يريده هو كشاعر وفنان ، فهو عند نفسه « أجير » يقدِّم العمل و يتقاضى الثمن ولا شىء أكثر من هذا ، و إن يكن أحيانا يعتز بموهبته فيعبر فى شعره ـ عرَضا ـ عن مذهبه الخاص ، و يتنفّس ـ فى تماسك ـ بأنفاس وانية لا تكاد تؤثر فى جوهر القصيدة أو تحيد بها عن الهدف الذى ينبغى أن تنساب إليه .

وهذه قصيدة قد بعث بها إلىَّ أديبٌ فاضل لم يشأ أن يتفضل بذكر اسمه ، ومعها خطاب رقيق فيه عتب رقيق ، ولوم مهذب ؛ فسيادته يرى أننى أظلم الديب بعض الشىء ، فقد جاء فى الخطاب : «ولكنى آخذ عليكم تحاملكم عليه فى بعض الأحيان ، لقد كان الرجل كتلة من الإحساس والحب والرحمة بالانسان ، وكان يعيش فى نظام استعمارى إقطاعى « ترسبت » أخلاقه فى كثير من الناس وفى مقدمتهم الأدباء والمتأدبون والمرتزقة من الكتاب والصحفيين ، وكان الواقع مؤلما أشد ما يكون الألم على إنسان رقيق حساس ، يحب الحياة والطبيعة والعدالة ، فهرب الرجل إلى المخدرات ، و إلى أحضان رعاة الأدب

www.alkottob.com

من الباشوات الجهال والانتهازيين وإلى الجمعيات المأجورة والأحزاب الفاشلة، فضاع نبوغه بين أيدى هؤلاء اللئام حين كان يلتمس منهم لقمة طعام .. أو قطعة من الرداء .. » .

وتلك وجهة نظر لا أستطيع أن آخذ بها ، لأننى خالطت الديب ونفدت إلى أطواء نفسه ، ولاأستطيع أن أنكرها على السيد «القارىء» لأنه ـ فيما أرجح ـ يحب الديب وإن لم يكن قد صحبه زمنا طويلا .

وإلى القراء طرفا من تلك القصيدة ، قال فى مطلعها يخاطب الانجليز المستعمرين :

كَمَـا شِئْتُمْ .. فما نَخْشَى انتقاماً خُلِقْنَا للأسى صُبُراً كِراما
نَفَى عنا المخاوِفَ أَنَّ فينا عزائم تصرع الموت الزُّؤَاما
ولو مات امرؤ منّـا شهيداً لَصَارَعَكُمْ رُفَاتاً أَوْ عِظَاما
وما نرجو نعيمكو سلاماً وما نَخْشَى جحيمكُو خِصاما

ويمضى الشاعر على هذا النسق القوى حتى يقول : ـ

نقلتم « ضَابِطًا » مِنَّا « كِيَادًا » وكلُّ بلادنا كَرُمَتْ مُقَاما
وإنْ حُبِسَ الغَضنفر فى مَحِيلٍ يُجِيعُ الناس لَمْ يَعْدِم طعاما
نَقَلْتُمْ .. أَوْ فصلتم ، أَوْ قتلتم فَمَا نَرْجُو العَدَالَةَ فى الفَدَامى
إذَا حَاقَ اضطهادكمو أَنِفْنَا وَلَمْ نَسْأَلـكُمو أبداً إلَى مَا ؟

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

وقد برّ الحزب بوعده فأعد للشاعر حجرة مريحة بحى السيدة زينب ، وهى حجرة ملحقة بدار تتألف من طابقين يسكنهما أحد الأغنياء . . ! ! ، وكأنها كانت معدة لسكنى الخدم « والحشم » ، أو أنها هُيئت ليوضع بها مازاد من أثاث الدار ، أو أن الطاهى يتخذ منها « مخزناً » لما تحتاجه الأسرة فى العام من طعام وشراب..! ، ولكن الديب كان مبتهجاً بها ابتهاج شوقى بكرمة ابن هانىء ! ! ، ولماذا لا يبتهج ؟ ! أليس فيها فراش وثير ومنضدة ، وبها أيضاً مقعد مريح ما كان الديب يحلم به ، وكل هذا فى حياة الشاعر لون من الترف ما كان يتخيله أو يتوقع مثله .

مرَّ شهر . . وشهران . . وإقامة الديب بالحجرة تهوِّم عليها أطياف من السعادة والدعة ، فلقد وجد بها أمنه الذى كان ينشده وهدوءه الذى كان يعدو نحوه من أمد بعيد ، فقد تكفل الحزب بأن يدفع عنه الكراء للمالك الذى كان الديب يرهبه ويخشاه .

وفى هذا الهدوء النفسى سعد الديب شهرين كاملين ، ولكنه أحس فيهما ـ ولا أدرى لماذا ؟ ـ أنه غريب عن نفسه ، فلقد عاش من قبل فى صراع مع الأيام ونضال مع الأحداث ، فما باله وهو فى حجرته تلك لايجد حلاوة هذا الصراع الذى كان قد جنَّد له كل مواهبه وحبس عليه جميع قواه .. !! ؛ ذلك أن حياة الدعة غريبة عن طبعه ونابية عما أَلِف

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

فى سالف حياته ، فقد عاش فى ماضيه يصارع الأيام و يصاول الأحداث ، وكان يسقط بعد كل صراع وعقب كل محاولة لاهث الأنفاس من كثرة ما أنفق من قوته ، وكان يرتمى إعياء إثر هجاء يوجع به صديقاً تنكر له ، أو يدمغ به من يراهم قد « احتكروا » الغنى فاستعلوا على المحتاجين .

وتلك حلاوة يجدها الشاعر الحاقد فى نفسه قد لا يوفرها له هذا الهدوء الذى يجده فى تلك الحجرة المريحة التى أعدها له حزب مصر الفتاة .

فكّر الديب أول ما فكر فى أمر المنضدة التى أُعدت له ، فوجد أنها نافلة تشغل فراغاً قد لا يستغنى عنه ، فالحزب قد أعدها له لينظم عليها قصائده التى سيقدمها للنشر ، على حين أنه ينظم ما يحتاج إليه فى الطريق . . وفى المقهى . . وفى حارة اليهود . . وفى كل مكان يغشاه . . ، والنتيجة الطبيعية لهذا المنطق الديبى الشاعر : أن تباع المنضدة والمقعد أولاً ولو بقروش يرفّه بها عن نفسه بعض الشىء ، ثم يشفع هذا بالتفكير فى وجوب التخلص من السرير والفراش كذلك . . ! ! ، وذلك حتى لا يشعر أنه غريب عن نفسه ، تلك النفس التى أَلِفَتْ ألّا تحيا فى هدوء ودعة ، لأنها صحبته وهو ينام على الصحف ، وعرفته وهو يتجمع من شدة الزمهرير ؛ والديب لا يكتفى

www.alkottob.com
www.library-arab.com/vb

بهذا ، فهناك أمر يقلق باله و يقض مضجعه ، وهو الكراء الذى يدفعه الحزب لهذا المالك الغنى ، إنها مشكلة احتال الديب لها بأن أقنع الموظف « المختص » بأن كرامته كشاعر تأبى عليه أن يدفع عنه الحزب أجر مسكنه ، فيتسلم الديب كراء الحجرة لينفقه فيما يهدر كرامته ، وعلى المالك أن يبحث عن معنى قوله تعالى : « فنظرة إلى ميسرة » . . !! .

ولقد مرت أشهر وصاحب البيت ينتظر والديب لا يدفع ، فإذا ألحّ الأول فى الطلب ، وغضب الثانى من هذا الألحاح الجشع ! ظفرنا نحن عشاق فن الديب بقصيدة رائعة كل الروعة ، فى بعضها صدق ، وفى بعضها الآخر كثير التجنى :

أُهِلُّ بها لله راضيةً نفسى ... وأشر بها فى الصبر مُتْرَعَةً كأسى
عَلَى موهباتى ألف دَيْنٍ لأمتى ... على أننى فيها لدى مِحَنِى مَنْسِى
رفعتُ حجاب الشمس فيها فأطلعتْ
عَلَىَّ النهار الصحو خِلْوًا من الشمس !!
وأحتمل الدنيا كأنِّى خلقتُها ... وَأَنَّ جميع الخلق عُلِّقَ فى رأسى
على القرب منى كنز قارون ماثلاً ... وَلَمَّا أَنَلْ منه سوى حُرْقَةِ اليأس
ففى بيت جارى آثرَ المال وَكْرَهُ ... فَيُصبح فى لَمْعِ الثراء كما يمسى
وجارى جماع الباخلين وظلهم ... فلم يَدْعُ محروما بعيد ولا عرس
له أسرة كالروض زهرا وَصَادِحًا ... فَمَنْ شَامَهَا أَلْفَى ملائك فردوس

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

بنون ، بنات ، كالورود يوانعاً يمرُّون كالإصْباحِ معتدل الطقس
يمر على سُكْنَاىَ فى ذَيْلِ بيته مرور عيون الموسرين على الفَلْس
تكبّر فالألفاظ منه إشارة كأنَّ عباد الله طُرًّا من الخرس
وإن نطلق الفصحى فمن طرف أنفه كنفخة ذى جاه ومال من الفرس
صحوت على قَصْفِ الرياح وصوته وما أحدث الطرق الخليع من الجرْس
يطالبنى بالأجر فى غيظ دائنٍ تصيده المحتال بالثمن الْوَكْسِ
وقال يدراى ظامه : أَىُّ ضامن
لِسُكْنَى تعَرَّتْ عن سرير وعن كرسى
أراك بها كل الأثاث ولا أرى سوى قلم ثاوٍ على الأرض أو طِرْس
فقلت له : هذى جدودى كما ترى فما مسكنى فى البيت ، بل أنا فى رمسى
وقلت : معاذ الدِّين ما كنتُ مرة غريما ولا أذللت يومى ولا أمسى
وأسمعتُه صوت الدراهم فانحنى يقدم أعذار اليهود من الْوَكْسِ
وأخضع فقرى كبره وثراءه وأى غِنًى للمرء غير غِنَى النفس ؟
إذا كانت السكنى بأجر مذلةً فما أرحب المجان فى غرف الحبس
فإنى أرى فيها الطعام ، ولا أرى غريما ، يُلاَقينِى بعارضة النحس
وإن لم أجد فيها الطعام ميسراً فإنى رخىُّ البال .. أطعم من حسى

* * *

أوضحت فيما كتبت عن الشاعر البائس ، أن الاستجداء لم يكن

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

أصيلا فى طبيعته ، وأنه إذا كان قد اضطر إلى هذا المسلك المشين فذلك لأن المحن قد دفعته إليه دفعاً ، وأن الجوع قد ألجأه إلى هـذا الضرب النازل من ضروب الحياة الذليلة التى كان يحياها .

وكنت كلما قرأت عنه مقالاً لـكاتب عجبت واستبد بى العجب ، حتى إنه — وأنا خليطه — كان يخيل إلىّ كلما فرغت من قراءة مقال أن الدنيا لم تعرف الاستجداء إلا حين دبّ هذا الشاعر المجرّح على ظهر هذه الأرض .

وهذا المعنى وحده هو الذى حفزنى إلى أن أعرض طرفا مما أعرف عن نفوس كبيرة لم يعصمها جلال قدرها ونباهة شأنها من أن تُسْلم زمامها طائعة للطمع الأشعبى ، ذلك الطمع الذى قادها فى غير ضرورة إلى مواطن الاستجداء ، وهبط بها فى غير حاجة إلى حيث الضراعة وذل السؤال .

وقد عرف الأدب العربى نفوسا كبيرة نأت بها نبالتها أن تذل وتخشع أمام الأطماع والرغبات ، وأبت عليها عزتها أن تتمرغ فى أوحال الضعة أو ترتكس فى دنس الذلة والهوان ، ولعل أقوى نفس عرفها الشعر ، هى نفس الشاعر الأبىّ « أبى العلاء المعرى » ذلك الفيلسوف الفقير الذى عاش مع نفسه فى فاقته حياته كلها ، فى حين أن قصور الملوك والأمراء كانت تشتهى خفق نعاله فى أبهائها .. ، ولكنه أقام بين الهوان وبين رغباته سياجا من العزة التى جرت فى دمه حتى صار وجوده جزءاً منها ، وأصبح

www.alkottob.com

شعره لسانها الذى لا يلوك سؤلا ولا يطيق أن ينطق بالبيت الضارع أو الشطر الذليل .

* * *

وقد عرف الأدب العربى شعراء قد استعبدهم الشعر ، وتناولهم الكتاب والناقدون بما لا يدع مجالاً للشرح والتعليق ، وأشهد أنى بذلت الجهد باحثاً عن مكان لعبد الحميد الديب بين هؤلاء الذين تكسبوا بالشعر فلم أجد لصاحبنا مكاناً بين هذا الحشد الكثيف ، ذلك أن عبيد الشعر بالمعنى المتقدم ، قد اتخذوا من مواهبهم الشعرية وبراعتهم فى نظم القصيد سبيلاً سهلة لصيد المال والثراء من أيسر طريق ، على أن كثيراً منهم كان له وضع مالى يعصمه — لو شاء — عن أن يجعل من قريضه ذريعة يضاعف بها ما منّ الله به عليه من رزق حلال ، فيصوغ منه محامد كاذبة لخليفة مستبد أو أمير ظالم عسوف .

لقد عملت البيئة ، سياسة كانت أو اجتماعية حينذاك على أن تسلب شخصيته التى يشعر بها لتضع منه لساناً ناطقاً بحمدها ، وظلا يمشى فى ركابها ، فالشاعر لم يكن يملك أن يؤمن بصفات رآها الممدوح حتى يمتدحه بها فى بصر وصدق ، وإنما الذى يجب أن يملكه لسان قوال ، وخيال صناع ليصدع بما يؤمر ولينشد ما يراد عليه لا ما يريده هو فى حرية واختيار ، لأن ما ينتظره بعد ذلك إنما هو البذل الذي هفت إليه نفسه

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

والعطاء الذى سخّر من أجله مواهبه وباع له فنه .

* * *

ولم يكن عبد الحميد الديب فى شىء من هذا ، فإنه لم يحرص أحد من ذوى الجاه على مدحه ، وإن جزع من هجاته الكثيرون ، وهو وإن يكن قد استعطف أشخاصاً بأبيات مصنوعة كاذبة ، إلا أننا نجده سريعاً ما ينسخ مديحهم بالهجاء ويكفّر عن إسرافه فى الكذب بإسراف أشد منه إيلاماً بأن يدعى النقص ويتخيل المثالب لمن كان قد مدحه ، وإنما مدح لأن الجوع أرغمه أولاً أن يمتدح كى ينال شيئاً ، فإذا امتلأ بطنه أو بلّ حلقه بالشراب الحرام أحس فيما بينه وبين نفسه بأنه تجنى على الحقيقة حينما مدح ، فلا يلبث أن ينقض ما كان قد أبرم ليرضى عن نفسه بعض الرضا ، وليقول لمن وصله : إنك لم تعطنى لأنك جواد كريم أو لأننى أستحق الأعطاء والصلة ، وإنما دفعتَ إلىّ ثمن ما تخيلتُ لك من همة ونبل وما استحدثت لك من مكارم وصفات ، فإليك الآن رأيى فيك كما تستحق ذما ونقيصة وإيلاماً .

وشىء آخر أجده فى الديب ولا أجده فى كثير غيره هو أنه لم يكن فى أغلب أحواله يمتدح بشعره إلا شخصاً يسأله ذلك المديح لقاء ثواب يقدم إليه بعضه ويُنْسِىء بعضه الآخر حتى ينتهى الشاعر من نظم مايُطلب منه من مدح رفيع تملى معانيه عليه إملاء ، فهو بهذا الاعتبار لم يكن

www.alkottob.com

عبداً من « عبيد الشعر » وإنما كان عبداً للفقر المدقع ، وأسيرا لحاجته الملحة للمال .

ولست أتهيب ـ حين أتناول من هذه الزاوية ـ شاعر العربية ، وعميد الشعر أبا الطيب المتنبى ، لأقارن بينه وبين عبد الحميد الديب على ما بينهما من فرق يتباعد طرفاه ، ومن تفاوت قد لا يُدرك الوهم مداه ، فالإجماع يكاد ينعقد على أن المتنبى هو الفارس الذى لا يشق له غبار ، وأنه كعبة القريض ، يحج الشعراء إلى معانيه ، ويطوف المولهون حول جلال بيانه ، ومع ذلك ، فقد هبط بشعره إلى ذل النخاسة ، وأرخص فنه فى سوق المال . . ! ! .

لقد كان أبو الطيب يعرف قيمة نفسه حين يُستغضب أو يفخر ، ولكنه حين يرضى أو يسترضى بالصلة كان يستعير ألسنة من حوله ، فهو راض كل الرضا عنهم وعن نفسه حين يرضون ، وساخط مثلهم أو أشد منهم سخطاً حين يسخطون .

وأجدنى فى غير حاجة إلى أن أعرض هنا ما كتب الكاتبون عن المتنبى ، لأن الكثير منهم — وفيهم شيوخ الأدب والنقد — قد انتهوا إلى أنه كان بعيد الهمة متجدد الطموح ، أو أنه كان فى رأيهم كما وصف نفسه بقوله :

سأطلب حقى بالقنا ومشايخ كأنهمو من طول ما التثموا مُرْدُ

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

ثِقَالٌ إذا لاقوا خِفَافٌ إذا دعوا كثير إذا شدوا قليل إذا عدوا

أو بقوله :

وإنى لَمِنْ قومٍ كأنَّ نفوسهم بها أَنَفٌ أَنْ تسكن اللحم والعظما

كذا أنا يا دنيا . . . إذا شئت فاذهبى

ويا نفس زيدى فى كرائهها قدما

فلا عبرت بى ساعة لا تعزنى ولا صحبتنى مهجة تقبل الظلما

أو بقوله من القصيدة ويعنى بالبيت الأول جدته :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لى أما

لئن لَذَّ يوم الشامتين بموتها فقد ولدت منى لأنفهمو رَغْمَا

تَغَرَّبَ لا مستعظما غير نفسه ولا قابلا إلاّ لخالقه حكما

ولا سالكا إلا فؤاد عَجَاجَةٍ ولا واجدا إلا لمكرمة طعما

يقولون لى ما أنت ؟ فى كل بلدة وما تبتغى ؟ ما أبتغى جل أن يسمى

نعم ، إن أبا الطيب كان كذلك ، ولكن يحسبى فى هذا المقام أن ينظر القارىء إلى شعره فى ديوانه ، وسيعرض الشاعر الكبير نفسه عرضاً لاتنقصه فضيلة الشجاعة حين يعترف مختاراً أنه متلهف إلى « ولاية » يصيبها من أبى المسلك كافور ، فإذا لم يكن إليها من سبيل فلا أقل من صلات وعطايا ثمناً لما دبج من مديح ، وثوابا على ما صاغ من در ،

www.alkottob.com

وما نظم من قرائد حسان ، وإذن فبِمَ نُسمى هذا النوع من السؤال والإلحاح ؟ أهو استجداء . . ولكنه على الطريقة التركية . . ، أم إنها الضراعة التى كان المتنبى فى غنى عنها حتى تكمل جوانبه ، ويستقيم لنا مجده الذى لا يسامى ، وأيّاما كان فإن عبد الحميد الديب قد استجدى من جوع وسأل عن حاجة واضطرار ، والفرق بين استجداء الديب ، وضراعة المتنبى ، إنما هو — فيما أرى — كالفرق ما بين عبقريتيهما فى دولة الشعر ، وكالمدى الواسع الذى نراه بين منزلتيهما فى مراقى الأهام .

وعندى أن المتنبى كان عبداً جاثياً فى دولة الشعر عن رضا وقبول ، على حين أن الديب لم يكن كذلك إلا حينما يمسه الجوع أو تطيش به الرغبات الملحة العارمة .

* * *

وهكذا هدتنى دراسة جانب من جوانب أبى الطيب إلى تلك الحقيقة المؤلمة ، ولست أجِدُ من تمجيدى لفنه الخالد ما يحملنى على أن ألتمس له فى ذلك المعذرة ، فإن لأمير الشعر قوة طاغية على العقول والقلوب ، ولكن قوته تلك كانت تذهب بددًا أمام شهواته فى الحكم ، وتتماع أمام صولة المال وتتلاشى فى بريق الذهب الذى ذهب بكبريائه ، وأنساه أن عظمته أكبر من أن تركع لِلْغِنَى ، أو تجثو أمام السلطان .

www.alkottob.com
www.library-arab.com/vb

www.alkottob.com
www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

الفصل السابع

الزواج وكراء البيت

www.alkottob.com

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

نحن الآن مع الديب وقد أوفت سنه على الأربعين ، يصحب الحياة على قلق ويلقى الناس فى تبرم وجفاء ، فلقد سئم الصراع الطويل المضنى فى أليم عيشه ، وأوهن عزيمته فى ذلك الكفاح الذى جند له مواهبه وحبس عليه كل قواه قرابة عشرين عاما من عمره ، فقد عاش يهجو هذا ، ويفضح ذاك ، وربما اختلط عليه أحياناً العدو بالصديق والراحم بالشامت .. ! ، فإن المحنة حين تتخذ من حياة المرء سماءها التى يتجمع فيها قتامها وتتلاقى به غيومها ، تسد الأفق أمام أحد الناس بصراً وأذكاهم بصيرة ، فلا يدرى ماذا هو فاعل ؟ ولا يكاد يميز بين من يحبه وبين من يضمر له الشر .

على أن الديب فى غالب حكمه على الناس أراه لم يظلم الأصدقاء عن قصد ، بل ولم يوجع العاطفين عليه عن عمد ، فإنه لشدة ما نزل به من كوارث ، ولطول ما لقى من شماتة واحتقار ، كان يأخذ الصديق بذنب العدو ، لأنه كثيراً ما أبصر العدو يسعى إليه فى ثوب الصديق ، وربما أصاب بسهمه الدامى حانياً عطوفاً عليه لأن ساخراً شامتاً أصابه يوماً مابسهم ريش من الحنو المفتعل ، والعطف المتكلف ، فهو لهذا قد أجمع أمره على مثل قوله :

وقد ساء ظنى فى العباد جميعهم فأى امرىء ألقى أراه خصيما ! !

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

وحين يعلل سوء ظنه هذا بالعباد نجده يقول :

ثيابِى كمُصطاف الغنىّ نوافذا وَمَشْتَى الفقير ابن السبيل هشيما ! !
ولى غرفة كالقبر لَمْ تَحْوِ أرضها سواى أثاثاً كالهباء قديما

ونسمعه ينشد :

أنا الغريب على الدنيا ، فعالمها
أَعْدَى عدوِّىَ يهجونى ، وأهجوه ! !

فما سمعت على الأعياد تهنئة إلاَّ مُدَاهَنَةً يُلْقِي بها فوه
يا قوم مالىَ من ذنب أُدان به ما بال نورى إن أظهرتُ تخفوه
لكنها محنة أنتم طواعية فيها لدهرى . . إن يأمر تجيبوه
ما العيش إلا مَنَالِى بعض أمنيتى فى المجد أنى دون المجد معتوه

ولعل النفوس الثائرة عليه لنقمته بالناس ، والحانقة على أسلوبه فى تناول الحياة .. لعل هذه النفوس ترحمه وتأسى له ، أو لعل غضبها عليه يهدأ حين تسمعه يقول :

و يارب ما يَومِى ، وأين منيَّتى ؟ أمالِىَ حتى فى المنية موعد ..!!

ولقد كان الشاعر على ما يشبه اليقين من أن الناس ينفرون منه و يشمتون بإخفاقه ، لأنه عاش شريداً وحيدا لا يعصمه عن شماتتهم مأوى يأوى إليه ، ولا يمسكه أمام أحداث الزمن معين أو نصير .

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

ومن ثم نزعت نفسه إلى زوجة تمسح الدموع من مآقيه ، وترد إليه بحنانها ما تفرق عليه من أمره ، وتعينه على وجيع الألم وبأساء الحياة ، ونفس الديب حين تنزع إلى الزواج يقودها سوء طالعه إلى زواج « ديبى » مكدود ، فقد كان وهو عزب يحتال جاهداً للعيش الكفاف ، فما ظنك به وقد تزوج أرملة تعول طفلة وطفلا مات أبوهما عن إقلال وضيق عيش . . ! ، إنها الأيام حين تمعن فى السخرية بمن لا حول له ولا قوة ، فهى تتأنق فى النكاية به ، وتحتال ما وسعتها الحيلة للعبث به عبثاً عارماً غير رفيق . . ! ! .

وزواج الديب كان أمراً عجباً ، فإن له فى نفسى قصة ، أو إن الديب نفسه كان فى زواجه قصة حافلة بالمشاهد والمفاجآت ، فيها جوانب دامعة بالحزن ، وجوانب أخرى باسمة بالأسى الذى لا يملك المرء معه إلا أن يبتسم أو يضحك ؛ ففى أضحية يوم من صيف عام ١٩٣٩ هبط علينا الديب وكنا أصدقاء أربعة لا نكاد نفترق ، وكان فى وجهه أمر جادّ ما رأينا مثله من قبل ، وقد بدأنا بالحديث عما يهمه فقال : « وهكذا أيها الرفاق ينتهى كل شىء من حياتى الحرة التى ألفتها ، فقد اتجهت نفسى إلى الزواج بالأرملة التى تسكن الطابق الأعلى من المنزل الذى به حجرتى ، إنها امرأة وحيدة تعول طفلين ، عرفتها فعرفت فيها العفة والرضا بالقليل ، وأنا كريم فقير أكبر فى المرأة أن تكون عفيفة مكافحة

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

على الرغم من أنى عشت حياتى قليل الرضا ساخطاً على قسمتى فى الحياة كما تعلمون ، فلعلى حين أصل حبلى بحبلها أشعر فى كنفها بهدوء نفسى طالما التمسته فعز عليّ،أو لعلى حين أبنى لى أسرة أجد من المجتمع احتراماً وألقم الشامتين بى حجراً ، فهل ترون أنى محسن أم مسىء »؟! فتصايحنا فرحين بهذا الاتجاه الجديد الذى يهدف إلى حياة أفضل كنا نتمناها مخلصين للشاعر البائس ، ولكن الديب أضاف فى ابتسامة مرة : إن حفل الخِطبة كان مقدراً له أن يتم مساء أمس ، ولكنه تعمد ألا يذهب لتهييه الزواج من ناحية ، ولضيق ذات يده من ناحية أخرى . . !! ، فلما لمسنا صدقه وتصميمه على الاقتران بجارته أعطيناه ما نستطيع من قروش يلتمس بها لزوجه ولو خاتماً من حديد ..، وصحبناه إلى « ظُهر زفافه » بكفر الزغارى ، فاستضافنا دقائق فى حجرته التى ظللنا وقوفاً بها ، لأنها كانت خالية من كل شىء كما هو الشأن فى حجرات الديب ، على أن الذى راعنا من أمره أنه ما كان يملك قميصاً آخر نظيفاً غير الذى يرتديه ، فتساءلنا فى همس وماذا عساه يفعل فى معالجة هذا الأمر ؟ وما كنا ندرى أن الديب قد مرن على مثل هذه المواقف وعرف بالتجربة كيف يتغلب عليها فى يسر وبساطة ، لقد رأيناه ينزع القميص ثم يلبسه «مقلوباً » فما كان ملتصقاً على جسده جعله ظاهراً وما كان منه ظاهراً ألصقه بجسده ، وتلك فلسفة ديبية ما أظن أحداً يقتنع

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

بوجاهتها إلا الديب نفسه ، فإن الموقف فى نظرنا ظل مشكلة كما هو ، بل إنه ازداد تعقيداً وسوءاً ، فقد ظهرت لأعيننا قذارة القميص فى صورة أوضح مما كانت عليه من قبل ، ولكننا تكلفنا الابتسام وتظاهرنا بالبهجة والرضا ، ثم صعدنا فى تضاحُك ومرح إلى مسكن العروس ، فحيتنا على استحياء ، ثم ضربت بيننا و بينها الحجاب ، والديب فخور بما فعلت ، ومدل علينا فى نظرة نفهمها منه بما آتاه الله من زوج طهور وبما حباه به من منزل مريح ذى حجرتين فسيحتين ، وما كاد صاحبنا يمضى فى استعلائه علينا حتى تطامن فجأة إلى الأرض وغشّت وجهه سحابة قاتمة من الألم والفجيعة ، فقد قدمت لنا جارة عجوز كانت تحتفل بالزفاف « قهوه ساده » فى حفل زفاف صاحبنا المسكين .

وما إن تجرعنا شراب الزفاف الأسود حتى انفلتنا فى عجلة إلى الطريق لنطلق ضحكات كادت تنطلق على الرغم منا فى المنزل فتفسد على الديب كل أمره ، وتحيل الفرحة بالزفاف إلى سخرية أليمة طالما شقى بها الشاعر فى ماضى حياته .

وفى صباح اليوم التالى التقيت بالديب فجذبنى من ذراعى لنأخذ مكاننا فى المقهى ، فلما هممت بالحديث معه عن زواجه السعيد دفع إلى بورقة مطوية نشرتها أمامى ، فإذا بها مايلى :

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

فى مأتم عرسى

لَقَدْ عَلَّلَتْنِي بالرضاعن خَصَاصَتِي ... وقالت مَعاذَ الصبر أن أتألَّما

فلما رأَتْ مَبْكَاىَ رِيعَتْ وأقبلت ... تُبَكِّى معى عيشا وحظا تَجَهَّمَا !!

فيالك عيشاً كلما هَمَّ صاحب ... يُواسى عليه هَلْهَلَ الدمع مرغما !!

إذا سَجعتْ ورقاء تَبعت فرحتى ... تَنُوح غرابا فَاحِمَ اللون أَسْحَمَا

وإن هُيئت لى بالمدامة متعة ... رأيت مرير الحزن بالكأس خَيَّما

وقد مَرَّ بى عصرالشباب ، كأنَّما ... طلعتُ على الدنيا مشيبا محطما

أقام لىَ الأصحاب عُرسا فمذ رأَوْا ... به مِحْنَتِي تشدوا أقاموه مأتما

وَرَوىَّ العَطَاشى من نَمِيرِىَ بينما ... سُقيتُ به مُهْلاً حميا وعلقما !

لقد نجح الإِجرام حتى رأيتنى ... إذا رُمْتُ بعضَ العيش أصبحتُ مُجرما

ولست بمختار الشقاء أو الهنا ... فطول حياتى أكرع الكأس منهما

وتغرى بِكُفْرَانِى خطوبىَ فاعجبوا ... إذا عشتُ يوما مؤمن القلب مسلما

ولم تمض شهور حتى برمت به زوجه إحسان لأمر كان بينهما .. ورغبت فى الطلاق .. فترضاها الديب برقيق قوله :

أَجِدَّكِ أضنانى حديث رحيلى ... وما غير يوم البعث يوم قُفُولى

ظننتُ مَتاعَ العرس يبقى إلى غد ... وأَنّ بُكُورِى بينه وَمَقِيلِي

www.alkottob.com

وَطَوَّفْتُ بالأحلام نشوان سادرا لعلّي بـلذاتى أبُلُّ غَليـلى
فعدوة ليل العرس واجَهْتِ الأسى لترقـع قسرا حِملها وحُمولى !!
لقد رضيتْ بى بعلها ، وكأنما تَطَلَّبَتِ البلوى بـكل سبيل
رأتْ فجأةً كأسى تفيض لكأسها معيشــة أفّاق وضعف ذليـل
فقالتْ وألفت سحنتى فى تَغَضُّنٍ مَعَاذَ الرِّضَا أن يُسْتَشَاطَ حليلى
فقلتُ حَنَانَيْكِ أغفريها جريمة فما عُرِفَ الشيطانُ زوج بَتُول
رأيتُكِ لم يَخلق ســواكِ فريدة تفردت فى حُسن وفيض قبول
فأقبـلتُ لِصًّا للجَمال أُصيبُـه وبعض المُنَى يُرْجَى بغير عقول
فأصبحتِ قُرباناً لحبى وفاقتى ضحيــة عهد بل ضحيــة جيل
على الرغم مِنّي أن أطلق زوجتى ومالى بها فى الـكون أى بديل
ولـكننى أخشى على الحسن فاقة فما اخْضَرَّتِ الدوحات بين مَحِيل
إذا قَلَّ مالى فى هــواها فإنما وفائى لها فى العيش غير قليـل

* * *

ظلت الحياة تضطرب بالشاعر فى عهده الجديد ، فهو مع زوجه سعيد حيناً وشقى أحياناً ، فإذا لانت له الأيام واستطاع أن يجد الطعام للأسرة الجديدة رضي عن نفسه كل الرضا ، وطفق يمتدح الحياة الزوجية

www.alkottob.com

الوادعة التى ينعم فى كفها و يسعد فى رحابها ، أما إذا خشُنت له الحياة وعزَّ عليه الطعام وآده كراء المنزل فهو ثورة جامحة على الزواج ، ونقْمَةٌ لا تنتهى بأعبائه الثقال ، إن الحمل قد تضاعف ثقله على كاهله الواهن الضعيف ، فما عاد يطيق النهوض بأعباء كل هذه الأسرة وهو المعدم الذى لايملك قوت يومه ، ولا يكاد يملأ معدته من الطعام الشعبى الرخيص ، إنه يريد أن يُسعد امرأته إسعاداً يُحوِّلُ أنظارها عن التحديق فى آفاق محنته المتجهمة ، وليصرفها عن التفكير فى سوء حاله ونحس طالعه ، عساه يَكبُر فى نفسها كزوج قادر على الكسب بما لهُ من خطر فى عالم الفن والإلهام ، ولكن المال لايُعينه على بلوغ مايريد ، لأنه يكسب فى يومه رزقاً متقطعاً غير موصول يأتيه رذاذاً من حين إلى حين ، فإذا أمسكته راحته انساب من فروج أصابعه وتلاشى من خلال يديه المرتعشتين .

لقد كان يحس إحساساً قويا أن زوجه وطفليها يشتهون أشياء كثيرة لا يجدونها ، فكان يألم لذلك أشد الألم ، لأنه عرف معنى الحرمان وأدرك لذعته القاسية الأليمة ، ولا يعرف الشوق إلا من يكابده ، فلكم رأيته يطير إليهم حاملا طعاماً كثيراً كلما أمكنته الفرصة وهو فرح سعيد بما يصنع ، لأنه يعتبر نفسه مسئولا عنهم أمام ضميره ، فهو بالنسبة إليهم فى مكان الوالد ، وياله من والد لايملك حيلة ولايكاد يجد سبيلا . . ! ، ولكم أبصرته كذلك ضيق الصدر ساخطاً على الكون حين كان

www.alkottob.com
www.library-arab.com/vb

بتركهم يرتقبون أوْبته و يتعجلون عودته ، عاقدين عليه أمل الجائع فى الطعام ، وقد يعود إليهم خالى الوفاض إلا من أرغفة قد يستدين ثمنها أو يذل فى الحصول عليها ، فأما أدمه الذى يحمله لهم فى مثل هـــذه الأحوال فهو تعَِلاّت وأوهام شعرية يعلل بها أسرته القانعة الواجمة ، فلقد كان ينشد « إحساناً » مثل قوله :

يا ربة الدار لا ترثى لأرزاقى قد قدَّر الله إسعادى و إمْلاَقِي
معيشتى بين مصر أصبحت مثلا لعبقرى غــنى النفس أفاق
والبؤس ياهَذِه حَبْلى وآصرتى إلى السماء ترينى فيض خَلاَّق
يا لَلْمدامع من خرساء ناطقة تذيع حرماننا من كل إنفاق
لم أشك جوعان أو ظمآن بل شغفاً فى رق سجنى إلى عتقى و إطلاقى
وعن أَنْمَاطِ قومى من ثرائهمو يَفْنَى ، وعزى من بؤسى هو الباقى
عزى بصبرى و إيمانى وتضحيتى وبالحفاظ على دينى وأخلاقى
تبكين من طول تبريحى ومتربتى ومِنْ جِرَاحِىَ فى قلبى وآماقى
وأنت ورقاء روضى ليس يَفْدَحُنى سوى جوَاكِ على غصنى وأوراق
أنا الذبيح مدى عمرى ومن عجب أَنىِّ حُرِمت بخطبى كل إشفاق

* * *

www.alkottob.com

على أن أشقّ يوم على نفس الديب كان أول يوم من كل شهر ، ففى ذلك اليوم يطرق المالك الباب فى علظة وجفاء يطالب بالكراء ، ويلح فى طلبه ، ولقد كان ذلك مألوفا لدى الديب حينما كان يتاح له أن يستأجر حجرة يقيم بها وحده ، فهو مثلا إذا سمع الطرق تناوم فلا يجيب ، أو يصطنع المرض أمام صاحب المنزل الذى تملأ قلبه الشفقة ، فيبتاع له أقراص الأسبرين ويحمل له أكواب الشاى من منزله ، وربما جلس إلى جوار الشاعر يواسيه ويخفف عنه ما لا يشعر بوطأته ، وإنما هو « التمثيل » المتقن فى ادّعاء المرض ، والحديث عن أسباب العلة حديثاً منقطعاً تتخلله الآهات وتختمه وجيع الزفرات ، أما الآن فالوضع مختلف كل الاختلاف عن ذى قبل ، فالحركة دائبة فى منزل أسرته . . فهنا فتاة تصيح وهناك فتى يركض ، والزوجة يرتفع صوتها حيناً بعد حين ، فليس للشاعر من سبيل فى أن يجرب ما كان يجربه قبلاً مع أصحاب المنازل ، فقد يستطيع المرء فى مثل هذا أن يحتال لنفسه ، ولكنه قد يَعْيَى بذلك إن التمسه لنفسه ولغيره .

ولهذا فقد دأب المسكين على أن يبعث بالرسائل إلى من يتوسم فيهم الخير ، يشرح لهم موقفهم الدقيق ، ويستعين بهم على تفريج هذا الضيق الذى يهمه بالليل ويذله بالنهار ، وما كان ينتظر رداً على رسائله ، وإنما يبعث بها فى الصباح ليصل بنفسه مع الرسالة إلى المرسل إليه فى

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

المساء ، فإذا أصاب شيئاً مما قدَّر استطاع أن يتنفس ثلاثين يوماً ، أما إذا خاب ظنه بمن كان قد عقـــد عليه الأمل ، فهنا همُّه الأكبر الذى يقيمه ويقعده ، وقد ينفِّس عن نفسه بمثل هذه القصيدة الرائعة التى أجاد فيها التصوير وأودعها فناً رفيعاً قد انقاد له :

ثمانون قرشاً أهلـكتنى ، كأنها ثمـانون ذنباً فى سجلِّ عذابى
طويت لها الدنيا سؤالاً وكُدْيَةً فما ظفرت نفسى برد جواب
لُعِنْتَ كراءالبيت ، كم ذا أهنتنى وأذللت كبْرِى بين كل رحاب
لأجلكَ إما أن أبيع كرامتى وإما أُفَدِّيها ببيع ثيـــابى
ففى كل شهر لى عُوَاءٌ بموقف يباعد عنى أسرتى وصحابى
وطول ليالى الشهر يهتاج مضجعى مخافة رب البيت يطرق بابى
يطالبنى فى غلظة ، فأُجيبُـه إجابة مَن يرجو يَدًا ويحابى
ألا سَكَنٌ مِلْكِى ولو بجهنم وأُكفى الأيام شرَّ حسـابى

* * *

وهذا الألم المرير قد يفضى بالشاعر إلى النقد اللاذع للأوضاع التى تواضع عليها المجتمع فى فهم حقيقة الفقر وتحديد معنى الإحسان ، فالناس فى مصر يَرَوْن أن الفقير هو ذلك السائل الملحِف الذى يطاردهم بالإلحاح فى كل مكان ، ويبسط إليهم كفه فى ضراعة وذلة ، ويفهمون الإحسان

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

كذلك على أنه العون لأمثال هؤلاء المتسكعين الساقطين ، أولئك الذين يتخذون من الكدية حرفة ، ويرون فى إراقة ماء الوجه مذهباً سهلاً من مذاهب العيش والكسب ، أما الديب ، فإنه يرى فى الفقير غير مايرون ، ويفهم الإحسان على غير النحو الذى يفهمون ، وهاهو ذا يجلّى لنا فى شعره صورة حية للفقير الجدير بالعون ويرسم لنا ببراعة نهجاً واضحاً للاحسان الذى ينبغى أن تعمُر به النفس الإنسانية ، قال :

دموعَ الثَّوَاكِلِ .. لا الغانيات   وَسُؤْلُ اليتيمات لا السَّادِرَاتِ
أَقِمْ وجهك السمح فى المكرما   تِ لكل كريم عَصِىِّ الشَّكَاتِ
فكم مُعْوِزٍ قد كساه الإبَا   ءُ حصانة ذى القدر الغاليات
فيقضى طَوًى دون أن يَجْتَدِى   ولا يذكر الجوع حتى الممات
وأسخَنُ من عبرات العُفَا   ةِ حَبِيسُ البكا بعيون الأُبَاة
إذا أَغْفَلَ الروضَ صوبُ الربيـ   ـعِ يَحُولُ إلى بَلْقَعٍ أو مَوَات
وإنْ أَعْوَزَ الحسن نيلُ الكفا   فِ جرى العُهْرُ فى الخُرَّدِ المحصنات
وللصابرين ، وللصامتين م   نداكَ ، وَجَنِّبْهُ مَنْ قال : هَاتِ
لمن يَصْطَلُون وهم صابرو   نَ لَظَى الفقر والمحن المهلكات
رجال نساء ، لهم فى المما   تَ غَرَامٌ لفقرهمو فى الحياة

* * *

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

وأخيراً فقد أصبح للشريد مأوى يلجأ إليه، وصارت له زوجة يسكن إليها كلما مسَّه اللغوب ، يلوذ بها كلما أطبقت عليه الأحزان ، ويفزع إلى حنانها كلما اعتصره الدمع ، وقد كانت مثل هذه الحياة أمنيةً حلوة من أمانى الشاعر ، حَنَّ إليها وهو يتجمع وحيداً فى أسماله البالية تحت وطأة الزمهرير ، ورامها وهمه وهو يسعى إلى غير هدف فى طرقات القاهرة ، فهل نجده الآن سعيداً فى منزله ، آمنا فى سربه كما ينبغى أن يكون ؟ ، أم أننا نجده لا يزال كما عهدناه من قبل : مستطار اللب ذابل الأمل يحيا فى جديده كما كان يحيا فى قديمه ؟ إنه أمسى ليلهُ دموع وجراحات وصار نهاره ذلة وضراعات ! ! وأنَّى للحنان وحده أن يُطعم جائعاً أو يكسو عارياً ، فإن حقائق الحياة أبعد غورا من هذا ، ومنطق الواقع لا يحفل بقضايا الوهم ولا بتهاويل الخيال .

حقاً إن الزواج قد حلَّ جزءاً من مشكلته المستعصية على الحل ، فأما جزؤها الآخر فهو كما هو ، ما نجع معه علاج ولا أفادت معه حيلة ، إنه الفقر المقيم الذى لا يود أن يتحول عنه أو يفارق حياته ، فكأنّ الفقر لا يكاد يعرف له مذهباً يتحوَّل إليه أو سبيلا يسلكها غير سبيله ، ومايُريد أن يدع الشاعر وشأنه عساه يعرف الابتسام فيما بقى له من عمره .

* * *

www.alkottob.com

وحين تعالم الناس بزواج الديب اضطروا — آسفين ! ! — إلى الإمساك عن القدح فيه والنيل من عرضه ، وقد عجب له قوم واستبشر من أجله آخرون ، فاما العاجبون من زواجه ، فقد كانوا على ما يشبه اليقين من أن الديب لا يصلح لمثل هذا اللون من الحياة الهادئة المستقرة ، وأما المستبشرون ، فقد أملّوا لهذا البائس هدوءاً قد ينسبه هول الفزع ، وتمنّوا له فى زواجه استقراراً قد يمسح عنه آلام هذا التشرد الطويل .

ولكن هؤلاء وأولئك نسوا أن الزواج الفقير قلما يزهر روضُه زهر السعادة المرجو ، لأن الفقر يذوى فى الروض زهرة ، والفاقة تقصّف منه الأغصان .

والديب إنما يصلح للزواج و يطيقه إن كان غنياً ، و إنما تنعم به نفسه إن كان ذا ميسرة أو على مايشبه الميسرة ، وإذن فليس العيب فى الديب أو فى زواجه و إنما العيب كل العيب فى أن الشاعر لم تتهيأ له الوسائل التى يواجه بها هـذا الزواج ، فهو فقير لا تعرف كفه المال ، وضعيف لا ينهض باعبائه الثقال ، أليس هو القائل :

أَيَهْنِيكَ أن أبكى وعيشك يبسمُ ... و يرضيك تَبْرِيحِى وأنتَ منعَّم

مضى العمر لم أُدْرِكْ به يوم ماجد ... وأنت على طول الحياة مكرَّم

وجِيعٌ لنفسى أن أرى منك فَرْقَدًا ... وأنتَ الثَّرَى تعلو علىَّ وتعظم

www.alkottob.com
www.library-arab.com/vb

وفى قسمة الأرزاق عدلٌ .. وإنما ... هُنَالِكَ سِرٌّ فى السما « وطلسم »
فيارُبَّ محروم من الرزق مَحْلُهُ ... لكل عباد الله خير وأنعم
وَرُبَّ حَظِيظٍ ليس يدرى غباؤه ... أجنة خلد عيشه أم جهنم ؟ !
إذا الناس لم تنقم من الديب حاقداً ... فللذنب تلوَ الذنب الله ينقم
أأكفر من بؤسى بأحكام خالقى؟ ... كَفَى بِىَ رِزْقاً أَنَّنِى الدهر مسلم
رَضِيتُ رِضَاءَ الحاقدين وإنه ... لَأَوْلَى لنفسي فى الحياة وأسلم
إذا المال لم يَشْفِ الغَلِيلَ من امرىء ... فَأَشْفَى من المال المنية والدَّم
إِلَى وَثَبَاتٍ فوق هامة محنتى ... وإلاّ فإنّى دونها سوف أعدَم
أَلاَ فارقبونى بعد بؤسى جريمة ... فقد عاش فى مصرٍ صفيق ومجرم

* * *

وكم طاف الديب بشعره على دور الصحافة رجاء الكسب فما ظفرت كفاه إلا بما يقيم الأوَد ويمسك النفس ..!!، فقد كانوا يطلقون على شعره ـ لرخص ثمنه وضآلة ما يتقاضاه صاحبه ـ اسماً لا يخلو من طرافة ومرارة فى وقت واحد ، إنهم أسموه « الشعر اليابانى » ، فكأنّ شعر الديب فى جودته ورخصه كالسلعة اليابانية التى كانت مضرب الأمثال إلى عهد قريب ! .

www.alkottob.com

الفصل الثامن

الدبّ موظفًا

www.alkottob.com

www.library4arab.com/vb www.alkottob.com

إنهم قِلَّةٌ أولئك الذين يعرفون من الديب أنه كان "كَلِفاً بالغناء ومفتوناً بالموسيقى ، والذين لا يعلمون عنه الولع بهذين الفنين الرفيعين لهم فى ذلك حجتهم التى لا تُنقض ودليلهم الذى لا يمكن أن يصادر ؛ فما للبائس المحزون وأسباب الطرب والسرور ؟ فالحياة التى ألفها الديب إنما كانت تهبُّ عليه عواصفها من كل جانب ، تحمل إلى أذنيه فى اصطخابها . . الرعد . . والبرق . . والصواعق ، وتصُب فى قلبه الهلع والرعب ، وإن أكف النوائب الثقيلة كانت تنقر فى جنون على طبل حياته الكبير نقراتِ الفقر الذى يُسلم إلى الفشل ، والذى يُفْضِى بالنفس إلى الذبول ، وكان هذا الدق المزعج يصل إلى وجدان الشاعر هزيما كجلجلة العاصفة المجنونة ، ويهدر فى كيانه مخرِّبا كأنه الطوفان يَجرف خرائب نفسه ، ويحمل ـ فيما يحمل ـ « أنقاض » سعادته وما تبقى له من شباب .

* * *

غير أن الديب كان شاعراً ، والشعر ـ كما نعلم ـ ظل الموسيقى ، أو هو فى حقيقته نغمها الساحر ولحنها الحبيب ، فالشاعر موسيقيٌّ على الرغم منه ، والموسيقى شاعر الأذن والوجدان ، وربما كان مع هذين شاعر اللسان أيضا ، وهذا التلازم الذى ربط الشعر بالموسيقى هو الذى ربط الشاعر الحزين بالموسيقى فَرِحَةً كانت أم حزينة .

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

ولهذا ، فلن نعجب حين نقرأ للديب قصيدته الرائعة التى وصف بها معهد الموسيقى ، وإن تكن نفسه الحزينة قد تلفتت إلى الحزن فى بعض أبياتها العِذاب قال :

يَا دَارَ داود مَا فَاتَتْكِ سَرَّاءُ ... يشدو بها مُلهماً غصن وَوَرْقَاءُ

آسَيْتِ كل جراح القلب من نغم ... يُزجِى به من عيون الفن أكفاء

من عازف أو هَتُوفٍ إنْ هُمَا اجتمعا ... تجمَّع الحسن ، والمخضرُّ ، والماء

وعبقرىّ غناء من ترنمه ... تصفو النفوس، فما فى الناس أعداء

فتخلق الحب موسيقاه ملهمة ... وكل فن له خلْق وإنشاء

إذا سَرَى بين مَوْتَى سحر نغمته ... أعادهم وهمو فى الناس أحيـــاء

والعُودُ كالقلب فى تكوين خلقته ... أوتارُهُ وَنِيَاطُ القلب أَنْدَاء

ولستُ أهضم للقانون نغمته ... فذاك شيخٌ .. له الآلات أبناء

والنَّايُ إن صحب القِيثَار فاستمعوا ... صوت العبيد بِذُلِّ الرِّقِّ قد ناءوا

للطار والطبل دقات منغمة ... كالقلب فى شغف تسبيه حسناء

يا معهد الفن ، يا أهرام دولته ، ... ويا سماء بهـا للفن إسْرَاء

فيك العبادة ألحان مقدسة ... وكل ما تحتوى لله إرضاء

كم ذا تخرج للدنيـــا ملائكة ... فما لفضلك تقدير وإحصاء

كانت عواطفنا مرضى فكنت لها ... بُرءًا أقام بها ، وَاسْتُؤْصِلَ الداء

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

جعلت تربية الأوطان مرهفة والفجر يُمْحَى به ليل وظلماء

وقد أنشد الشاعر هذه القصيدة فى حفل حضره وزير الشئون الاجتماعية حينذاك ، ولما طرب لها الوزير استعادها مرة أخرى ، فقال له الديب : « إنما أنا شاعر مأجور وقد تقاضيت ثمن ما أنشدت ، فهل أطمع فى ثواب جديد إن أنا أنشدتها ثانياً ؟ » ، فوعده الوزير بذلك وقد وفى بما وعد .

* * *

ولكن صاحبنا حين « قبض » الأجر وظيفةً بالشئون ألفى سوء طالعه يلاحقه هناك ، فما كاد يستقر به المقام حتى فزعه قسم المستخدمين بطلب « المسوِّغ » ، وهنا نجد الشاعر يحتمى بالوزير فيقول :

أأبكى وحظى فى حماك يغرد ؟ ! وأفنى ، ولى ذكر إذا شئتَ يخلد

وأشقى شقاء الروض جانبه الحيَا وفى مصر أكفاء بعطفك تسعد

أتُلْبِسنى تاج الكرامة لامعا وتنزعه أيْدٍ لعدلك تجحد ؟!

أتشهرنى سيفا على الدهر صارما ويوشك من بؤسى يُفَلُّ ويغمد ؟!

أتركبنى فُلْكَ النجاة ، وكلما قصدتُ به شَطًّا يطول ويبعد ؟!

لقد هددونى «بالمسوغ» وانبرى يناوئنى منهم وَضِىءٌ وأَرْبَدُ

وما دام لى « رد اعتبار » فإننى أرى شرفى بين السماكين يصعد

www.alkottob.com

فَذُدْ ضَرَبَاتٍ فى الظلام تنالنى إذا لم يكن لى من حياتك منجد

وهكذا امتدت إلى الشاعر يد راحمة لترد إليه ما تفرق عليه من كرامته ، ولتعيد إليه ثقته فى نفسه كإنسان شريف يصلح للحياة التى صلح لها الناس،وهذه اليد الآسية كانت يد السيدعبد الحميدعبد الحق الوزير الأسبق لوزارة الشئون الاجتماعية ،فلقد أسندللديب عملاً حكومياً فى الوزارة كان له أكرم الأثر فى نفس صاحبنا ، تلك النفس التى طالما تساقطت أنفسا حزنا من شماتة الشامتين وكمدا من كيد الأصدقاء الألداء .

وما رأيت الديب شامخ الأنف على الإفلاس كما رأيته يوم أن ذهب يتسلم عمله الحكومى !! ، فقد ابتاع لنفسه عصاً يتوكأ عليها فى صلف واعتداد ، شأن السادة من ذوى « الحل والعقد » فى الدولة ، وكان كثيراً ما يُقْحِمُ فى حديثه أمامنا ذكر الوظيفة .. والوزارة .. وتصريف الأمور .. ، وذلك حين يرى فى مجلسنا موظفا كان يتخطاه فى الماضى بنظراته ، كأنّه يريد أن يقول فى كل لفظ من ألفاظه لأمثال هذا المدل بمجد الوظيفة : « وهكذا ترانى الآن موظفا مثلك ، أما أنا فما كنت أراك فى الماضى على الرغم من وظيفتك إلا دعيا تافهاً » وكأنى بالشاعر يتحدى فيقول : « فها أنا ذا أقف الآن على قدمىّ أجمع المجد من أطرافه ، فهل من مبارز ؟ هل من مناجز !! .

www.alkottob.com
www.library-arab.com/vb

ولما انحسرت عن الديب نشوة الفرح بالوظيفة وفتر لسانه عن كبت الشامتين بأنبائها ، تفتحت عيناه على الحقيقة الفاجعة والأمر الجلل ؛ لأن الموظف الجديد و إن يكن قد تقلد عملا رسميا إلا أنه ليس له مقعد فى الوزارة يجلس عليه ، ولم تهيأ له منضـــدة « ينتفخ » من خلفها كما هو الشأن حتى مع صغار الموظفين ، ولهذا فقد بعث إلى الوزير هذا البيت :

بِالْأَمْسِ كنتُ مُشَرَّدًا أَهْلِيًّا واليوم صِرْتُ مشردا رَسْمِيّا

و قد تفتحت عيناه كذلك على ما هو أدهى وأنكى ، فإن رئيسه الفاضل السيد نصير رجل رياضى له مجده فى حمل الأثقال ، والديب شاعر مُفَزَّعٌ يعيش على أعصابه ، يرهب القوة ويخشى البأس ، فهو حين يعرض على رئيسه هذا أمراً يحدق فى خوف ووجل إلى يمنـاه القوية وساعده المفتول ، ولهذا فما جنح يوما معه إلى الجدل ، و إنما هو الأطراء المتصل فى حماس لـكل رأى يراه هذا الرئيس الرياضى القوى .. ! .

وتفتحت عيناه أ كثر ما تفتحت حينما أقبل أول يوم من الشهر ، فقد ذهب فى زحام الموظفين إلى « الخزنة » ليتسلم راتبه ، لقد كان راتبه جنيهات دون أصابع اليد الواحدة عداً ، ولما تلفت إلى جاره فى الحجرة وجده يعد راتبه أضعاف مايجد فى يده ، وهنا يفزع الشاعر إلى

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

الوزير بأبيات هي على رصانتها لا تساوي فَلْساً في سوق المال والثراء الذين تخيلهما الديب في الوظيفة . . قال :

جَناحِي في ظِلاَلِكَ يُسْتَهَاضُ ... وأيّامي على ذُلّي تُرَاضُ
وقد شبعتْ من النُّعْمى بطون ... مُغَلَّظَـةٌ وأقْفِيَـةٌ عِرَاض
تجافت بي وجوه اليسر ظلما ... وأَفْرَخَ معشرٌ فيهـا وباضوا
خَجِلْتُ من التهاني ، إِيْ وَرَبِّي ... أَيَهْنِئُونِي على بَرَصِي البياض؟!
ولم يَقْنَعْ بعظْم الشَّاةِ ليْثٌ ... وقد سَبَحَ الذئاب بها وخاضوا
أَيُعْوِزُنِي الـكفاف إلى وزير ... عن الدنيـا نداهُ يُسْتعاض ؟!
وتقتلني الجراح لَدَى مُوَاسٍ ... على أيديه كم شُفِيَ المِراض ؟!

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

www.alkottob.com

www.library4arab.com/vb

الفصل التاسع

هذا هو الذيب فلا تظلموه

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

تواضع الكتاب على أن البيئة قد تطبع الفنان بطابعها وتصوغه على مِثالها ، فهو منها كالصدى الهامس من الصوت القوى ، أو أنه كالشعاع الراقص من الشمس المرتعشة ،وهذا الترابط الذى نرى لا فكاك للشاعر منه ولا معدَى له عنه ، لأنه فى فنه مشدود أبداً إلى النزول على حكم البيئة بأوامر غير منظورة ، أو هو معطوف إليها فى غير اختيار ولا إرادة .

ولكننا نجد قلة من الفنانين الكبار قد تمردوا على حكم البيئة واستعلوا فى اعتداد وكبرياء أن يصبح فنهم الذى يصدر عن وجودهم صدى لصوت لا يؤمنون به ، لأنهم كانوا قد آمنوا أولاً بأنفسهم إيماناً صرفهم عن كل شىء إلا عن النزول على حكمه الذى به يؤمنون ، والاستجابة لهواتفه التى إليها يُصِيخون .

وهذه الطبقة الممتازة من الفنانين والشعراء هى الطبقة الموجهة للفنون والمجددة لشباب الآداب ، أو إن شئت فقل إنها تمتاز بالخَلْقِ الفنى والابتكار الأدبى ، لما لها من قوة فكرية طاغية وموهبة عاطفية ثرّة .

وقد يكون مَرَدُّ هذا التمرد الذى أشرنا إليه إلى شىء غير الاعتداد والكبرياء كما رأينا فى شعر الديب وأضرابه من الشعراء الجياع ، فإن لهؤلاء مذهباً خاصاً أشرت إليه فى مستهل هذا الكتاب ، وخلاصته

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

أن الديب قد نفض يديه من الناس جميعاً ، وأصم أذنيه وأطبق جفنيه عن كل صوت وعن كل نور كان يُدَوِّى أَوْ يَمِضُ حوله ؛ فلهذا سلك سبيل المتمردين ، ومشى معهم كتفاً إلى كتف وزاحمهم جنباً إلى جنب ، ولكن لا ليصل معهم إلى ما قد ساروا من أجله ، وإنما لينقع غلطته ممن أظمأوه وارتووا ، ولينهش أعراض من أجاعوه وشبعوا ، وقد كان يُتَاح له فى عجاج هذه الملحمة أن يبكى حظه حتى ليكاد يشرق بالدمع ، وأن يصور بؤسه فى صُوَرٍ تَمْثُل له أمام عينيه فيهلع منها ويرْتاع ؛ ولو أننا أغفلنا أمر الغاية التى من أجلها تمرد الديب فى شعره على البيئة التى عاش فيها لا استطعنا أن نقول فى ثقة ويقين إنه لم يرهب فى شعره أحدا ، ولم يتكلف أن يرضى عنه المجتمع أو يسخط .

* * *

لقد جاء شعره كما عرضنا جانباً منه جروحاً تنزف دماً ، وصرخات تُوَلْوِلُ أسى وتقطر معاً ، ورأيناه كذلك كالشهاب المنقض على أعدائه يدمغهم بما لا يذهب أثره على الزمن وما لا تَخْلُق جِدَّتُه على الأيام ، فهو فيما أرى نسيج وَحده فى هذه الباب ، وهو المجدد وصاحب اللواء فى الشكوى وتجسيم الأحزان .

وليس من حق أحد أن يظلمه ، أو يتجنى عليه فلقد ضقت ذرعاً

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

بأولئك الذين يخلطون بين فن الديب وبين أسلوبه فى الحياة،وقد برمت كذلك بهؤلاء الذين يلقوننى وَرِعِينَ أو مُتَوَرِّعِين قائلين لى : « ما كان لك أن تكتب عن مثل هـذا الشاعر الفاسق المستهتر ! ، » فكأننا جميعاً — عدا الديب — نسعى على هـذه الأرض ملائكة أطهاراً لا نعرف الذنوب إلاّ لمثل هذا المستضعف المسكين ! ؛ ألاَ فليعلم هؤلاء السادة أن الديب كانت له نزوات ككل إنسـان ، وقد وَكَلَ أمر غفرانها إلى الغفور الرحيم حيث يقول :

أَيُعْفِيكَ من دمعى نُفورُك من ذنبى دَعِ الذنب يُحصيه ويغفره رَبى

وليعلموا أيضاً إن لم يكونوا قد علموا ، أن الديب لم يكن داعراً عن قوة واقتدار ، ولم يكن مستهتراً فى تصميم وإصرار ، وإنما هى مُتَع آبِقةٌ ولذاذات متسكعة تسوقها الأيام فى طريقه الوعر فَيَلْقَفُهَا الشاعر المكدود حَفِيًّا بها إلى حين ، ومحتفلاً بإسعادها الظاعن كما يحتفل الجائع المسغب بلقمة خبز يابسة يجدها فى طريقه بعد طول جهد وتطواف ، ولعل هؤلاء السادة يُرِيحون ويستريحون إن هم أنشدوا لأنفسهم مايحفظون من قول الشاعر :

عَفَافُكَ عَجْزٌ .. إنما عفه الفتى إذا عَفَّ عن لذاته وهـو قادر

* * *

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

فلقد كان الإيمان يَعْمُرُ نفس الديب و يغمر مشاعره ويملك عليه كل وجوده ، بل لقد كان يَمِض فى قلبه ومضات قوية حتى فى أحلك أيام حياته وأشدها عبوساً وجهامة ، وليس ذلك بدفاع تمليه عَلَىَّ صداقة و تضطرنى إليه مودة ، و إنما هو دفاع يَفِدُ من القلب المؤمن الذى يحمله الديب بين جنبيه .. فأنت تجد هذا فى قوله :

وفى قسمة الأرزاق عدل ، و إنما هنالك سر فى السماء وطلسم

ثم يرضى بأحكام خالفه رضا هو مزيج من التمرد الصريح والتسليم الساخط فيقول :

رضيتُ رضاء الحاقدين . . و إنه لَأَوْلَى لنفسى فى الحياة وأسلم

وفى قوله :

أأكفر من بؤسى بأحكام خالقى ؟! كفى بى رزقاً أننى الدهر مُسلم

وفى قوله :

و يارب أين الرّزق ؟ أين السماء ؟ وأين أنت ؟ يا إله الجميع

أليس لى فى طيب عيشى رجاء ؟ أليس لى فى عطف ربى شفيع ؟

خذنى إذا ما المال أمسى عسيرًا فالموت خير من حياة الفقير

الشاعر الموهوب يحيا فقيراً وما له فى شعبه من نصير

* * *

www.alkottob.com
www.library-arab.com/vb

وغاية الإيمان بالقدر خيره وشره أن يقول الديب لزوجه :

يا ربة الدار لا ترثي لأرزاقي   قد قـدر الله إسعادي و إمـلاقي
والبؤس ياهـذه حَبْلِي وآصِرَتِي   إلى السماء تريني فيض خـلاقي

هذا ولعلي لا أكون واهما حين يرن الآن في سمعي صوت الديب مرتعشاً متهدجاً ، وهو ينافح في قوة عن إيمانه ويدرأ التهمة عن نفسه ، معترفاً لربه الغفور الرحيم أنه مذنب على الرغم منه ، يرجو الصفح والمغفرة ، وأنه لا يجد الملجأ منه إلا إليه ، فهو وحـده سبحانه صاحب الحـول والطول .. إليه المفزع ومنه الحنان ؛ وكأني أصيخ إلى الديب وهو يضرع إلى خالقه في ذلة عزيزة ، وضعف قوي .. بقوله :

كُلُّ شيء أَشْهَدَ اللهَ عَلَيَّا   فرّتِ الدنيا جميعـاً من يديّا
لا تقلْ لي : كيف تحيا سَادِراً ؟   أنا مَيْتٌ بين قومي ، لستُ حيا
سرُّ هـذا البؤس أني شـاعر   قـد أَفادَ الدهر منِّي عبقريا
أَنَا أَوْ إبليس للدنيـا عَمًى   هـو خافٍ ، وأنا أبدو جَلِيّـا

* * *

وهبطتُ الروض والليل سَجَا   قد أَجَنَّ الطـير والورد الشذيا
كلَ مافي الـكون حتى تُرْبُهُ   سَبَّحَ الدَّيَّانَ تسبيحاً خفيـا
رنّةَ التـكبير في أذني مَحَتْ   رَنَّةَ الـكأس وَأَوْدَتْ ، بالحُمَيّا
والمصـلون لدى تسبيحهم   صيّروا النّدمان في عيني نسيا

www.alkottob.com

يا صَبوحى ، يا غَبوقى ضَلَّةً　　لكما منِّى بُكوراً أو عشيا
قاتُ : ربى وأنا جاثٍ له　　فَحَبانِى عطفه قلبا رضيا
تُبْتُ من ذنبى ، ومن تَرْجع به　　نفسُه لله يبعثه نقيا

ولم نكن منصفين حين كنا نؤكد للديب — وهو يشكو إلينا حاله — أن بؤسه هذا الذى يجد إنما هو المعين الدفاق الذى يغترف منه عذب شعره ، فقد كان يرحمه الله يرتاع من هذا التأكيد ويمضى ثائراً فى ثلب الشعر ولعن الشعراء من لَدُن آدم حتى نهاية العالم ، وحين يفطن إلى أننا كنا نعبث به لِنُثيرَ فيه السخط .. يَهْدَأُ ، ويقول :

أترون أن الشاعرين ابن زيدرن وشوقى كانا بائسين فى حياتهما المترفة ، أَوَ تظنون أننى لو قمت شهرا فى « كرمة ابن هانىء » أنى سأبتلى بِعِىٍّ « باقل » فلا أُلْهَمُ شعراً كما ألهم الشاعران .. ألاَ فهيئوا لى هذا المقام شهرا واحدا ثم انظروا كيف أسبى عقولكم بالخرد الحسان » .

ولستُ بمستطيع أن أمضى مع الديب فى هذا الخيال الشعرى ، لأننى لست على يقين من أنى سأنتهى إلى ما انتهى إليه من نتيجة ، فإن من المواهب ما يذكيها الحرمان ويُخملها النعيم .

ولكن الذى أستطيع أن أستيقنه أن الشاعر حين كانت تَعِنُّ له متعة أو تخطر أمام ناظريه ، أراه يصنع من ذلك جناحين يحلق بهما فى

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

آفاق الشعر ويضرب بهما فى فلك الروعة والإلهام ، فقد صحبه يوما أحد أصدقائه إلى ملهى راقص لم يكن رآى مثله من قبل ، وحين رأى لأول مرة مايراه غيره حين يشاء وصف الراقصة وصفاً كأنه عاش معها أمدا طويلا ، ونفذ إلى دخيلة قلبها وكأنه كان صديقها المصطفى منذ سنين وسنين ..!!.

إن الديب يرى فى الرقص رأيا لم يسبق إليه فى الأدب العربى — فيما أعلم — ، لأن فى أبياته الواصفة عمقاً فى الفكرة ورقة فى التعبير ورشاقة فى العرض ، قال شاعر البؤس :

عَرْبَدَ الحُسن ، فَجُنَّ السَّامِرُ　　وَعَـرَا السَّمَّار أنس غامر
رَقَصَتْ أمْ زلزلت من رقصها　　كل قلبٍ ؟ فهو ناءٍ حاضر
الشيوخ القُعَدُ اسْتَجْلوا بها　　كل حسن ، والشباب الباكر
ذلك الرقص صلاةٌ وهـدًى　　ودعاء مُسْتَجَاب طاهر
وَيَدٌ تَسْتَلْهِمُ الله التقى　　وفؤاد بالأمانى عامر

* * *

وأكاد أحكم أنّ الديب كان شاعرا وصّافا ، وهذا الحكم يستتبع ـ لا محالة ـ الجزمَ بأنه كان مستوفز الحس يقظ الروح مرهف الوجدان ، وهو وإن كان الفارس المجلِّى فى الأحزان . . إلا أنّ له إلى جانب ذلك

www.alkottob.com

مكاناً مرموقا فى وصف ما سواه من أغراض الشعر .

وهذه قصيدته التى عنوانها : « الحرب فى البحر » ، أعرضها على القراء من غير تعليق عسى أن تقع آراؤهم فى الشاعر قريباً من الرأى الذى انتهيت إليه ، فإن ذلك أبلغ فى الإقناع وأدنى إلى محجة الاقتناع ، إنه بدأها بوصف السفن . فقال :

سَرَتْ بين مَرْهُوَبيْنِ ليلٍ مُنَافِقٍ ... وبحرٍ مدى الدنيا ، خَفِيّ الطرائِق
كتائب فُلْكٍ جُنِّدَتْ لكريهة ... وحرب بها تبيض سود المَفَارِق
إذا مارست كانت جبال مَرَادَةٍ ... وإن أَقْلَعَتْ كانت قلاع تسابق
ويعصمها من بغته الخطب فِتْيَةٌ ... رضَاعُ الوغَى لم يعبأوا أىّ طارق
مُرهفة أرواحهم وجسومهم ... مُضَمَّخة أثوابهم بالمَعَابِق
وهم بين دنيا البحر أشباه موجه ... كُماةُ نِضَالٍ دائم متلاحق
وهم فى مُفَادَاةِ السفين وصونه ... عطاشى إلى موت لدى الحرب شائق
تَصَدَّتْ لهذا الفُلْكِ رَقْطاء خَبَّأَتْ ... تجاعيدها من كيد رام وراشق
فألقت عليه مسعراً من جحيمها ... أنابيل نار بين مُرْدٍ وماحق
وَزَكَّت نسور الجو ، قامت بغارة ... رمايتها الشعواء تحصد ما بقى
فَأَصْلَتْ ، وأصلاها السفين جهنما ... لظاها قضاء لم يجد أى عائق
بوَارِج تُفْنِي الطائرات بحالقٍ ... وأخرى تَقُدُّ الغائصات بساحق

www.alkottob.com

وَدَوَّتْ بأرجاء الجحيم صواعق ... لها أَنْصتَ الجبّارُ إنْصاتَ حانق

تَحَدٍّ لماء البحرِ سخرية اللظى ... به مُهْدَرٌ فى العقل فهم الحقائق

قداجتمع الضدان فَلْتَسْقُطِ النُّهَى ... فقد تَهْلِكُ الدنيا ببعض الخوارق

وَرَجَّعَتِ الأرواح صيحات هالع ... من الموت مذهول، وصرخات غارق

وَبَارِجَةٍ قاست بمحنة حَيْنِهَا ... مقاساة تَوَّاقٍ لدنياه عاشق

تَغُوص وتطفُو كالسراج إذا خَبَا ... وهَلّ بِأَرْمَاقِ الذبيح المفارق

وكم دَارِعَاتٍ هَدْهَدَ الموت عابثاً ... بَقِيَّاتِ أَلْوَاحٍ لها وَنَمَارِق

بَدَا الصبح ليلا بالمحيط وقد علا ... إلى النجم وَهَّاجُ اللظى والحرائق

ولم يقض غير «القبطان» وقد نجا ... من الموت ملاحوه فوق الزوارق

كذلك أبطال البحار .. وفاءهم ... لفلكهمو كالسَّأْسَانِ المتدانق

تبدَّا على ظهر السفينة واقفاً ... مُحَاطاً بأعلام لها وبيارق

وهامته فوق الكواكب رفعةً ... ومن وجهه الوضّاح فيضُ مَشَارقَ

فغاصَ وَإِيَّاهَا قريراً كأنما ... هما توأمان فى رُفَاتٍ مُلاصق

وما مرّ هذا الليل إلا على دمٍ ... سُلَافٍ لِحَيِّ الْحُوتِ.. حِنَّاءِ نافق

قد احترقت فيه النجوم، فما بدا ... بها من دخان أو لظى أى بارق

ولم يبق فى التيار إلا ثُمالة ... بقايا سفين .. أو بقايا خلائق

إذا لم تكن حرب البحار قيامة ... فأَشْرَاطُها منها عقيدة وائق

www.alkottob.com

وإذن فقد جاء شعر الديب من ذلك النسق العالى الذى عرفنا : رصانة فى رقة ، وجزالة فى عذوبة ، وصدق تصوير لما تشعر به نفسه من غير تهويل أو تزيُّد ، فشعره صفحة واضحة السطور نستطيع أن نقرأ فيها حياته كاملة من ألفها إلى يائها ، فإنه لم يستر منها شيئاً فى شعره ، ولم يَسْكُب حولها أضواء وألواناً قد تُجَلِّلُ الصورة أو تخدع الأنظار عن إدراك حقيقتها ، بل إنه ساق قصته فى عيشه بأمانة وإيفاء ، وتحدث عن بؤسه الفاجع فى شجاعة لم نعرفها إلَّا له ، وتناول ذلته واستجداءه تناولا فيه كثير من الصدق والاعتراف ؛ والديب كما قلنا كان فى كل ذلك يغترف من وجدانه وَيُغَنِّى أو يبكى على ألحانه ، ولم يكن مثل أولئك الذين يحلو لهم أحياناً أن يكون لهم شعر فى البؤس وهم مترفون . . ويطيب لهم أن يسرفوا فى تقدير همتهم ليخيِّلوا للناس أن العزم قد صح منهم ولكن الدهر أبَى . . فهذا نوع من الترف العقلى وضرب من ضروب تبرير الإخفاق فى الحياة كان شاعرنا بِمَنْأى عنهما بفطرته ، ومُشيحا عنهما لغرابتهما عما انطبعت عليه نفسه من صدق تعبير وصراحة مذهب .

* * *

وأعود فأؤكد ما قلت أن معظم شعر الديب جاء تسجيلاً أميناً لما مر به من أحداث ولما اصطخب حوله من هول ، وأن شعره فى تقديرى

www.alkottob.com
www.library-arab.com/vb

ليس إلاّ « مذكرات يومية » أودعها الشاعر شتّى أحاسيسه وضمنها مختلف مشاعره ؛ فأنت واجد بها قلباً ينبض بالأسى ونفساً تهوّم عليها هالعات الأحزان ، وإنك لواجد كذلك رضا بما قدر الله حينا ، وتبرما بما شاء أحياناً ، والشاعر فى كل هذا إنما يعرض جوانب نفسه كما هى .. فالقريض قد يأتى رِضاً إن كانت نفسه راضية ، ويجىء سخطاً وتمرداً إن شعر بها ساخطة متمردة ، وما عرفت عنه أنه كذب فى إحساس أو بالغ فى شعور ، اللهم إلا إذا استثنينا ما ألمعت إليه آنفا من شعره الذى تعمَّد أن يهول فيه بغية التماسك أمام الأعداء أو التجلد حين يلقى الشامتين .

* * *

ولهذا ، فما كتم فى شعره أمراً كان ينبغى أن يكتتم ، وما أخفى ذلة قد تسقطه أمام من ينكرها حتى لو كانت لجائع أو مكدود ، فها هو ذا يتقدم فى ضراعة باكية إلى الملك الأسبق « أحمد فؤاد » ، وإذْ كان يتوهم أن العطاء الملكى سيأتيه فياضاً من بين يديه ومن خلفه إن هو بكى .. وأجهش فى البكاء .. أو شكا وذَلَّ فى الشكوى !! ، ولو أنه ظن قبل ضراعته ما استيقنه بعدها لاعتصم بالعزة ولاذ بالكرامة التى تليق بشاعر مثله ، قال :

تجافَتْ به الدنيا فعاش ذليلا ... ولم يُجْدِهِ فرط الذكاء فتيلا
سلام على حَظٍّ وقفتُ بقبره ... أنوح عليه بكرة وأصيلا

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

رجوتُ الحيَا سقيا لِرَبْعِي فَعَقَّنِي ... وَعُدْتُ وربعى لا يزال مَحِيلا

وَمِنْ شقوتى فى محنة العيش أننى ... فقدتُ نصيرى صحبة وَقَبِيلا

ولا عجبٌ فالدهر أظلم حاكم ... يُعِزُّ هَجِيناً إِذْ يُذِلُّ أصيلا

ولو لم أعش فى جُنَّةِ الصبر راضيا ... لقضَّيتُ أيامى أُسىً وعويلا

رواية مظلوم تمثل عمره ... على أنَّهَا لمَّا تتم فصولا

فقدتُ الصِّبَا.. وارحتاه على الصبا ... وأصبح طرفى عن مُنَاىَ كَلِيلا

ومات أبى أعشى .. وأُمّى سقيمة ... لحزنهما مما لقيتُ طويلا

«أمولاى» إن الغرب عَزَّ جنابه ... بتكريم «رُسُّو» تارةً و«إِمِيلاَ»

فإنّ الصَّدَى يُؤْذى الحسام ولو غدا ... حسام «الزبيدى» صارما وصقيلا

ولو حرم الزهر النضير من الندى ... لَبَاتَ هَشِيماً إذ يموت ذُبولا

* * *

لم يعرف الديب فى معظم حياته ترفا ترقُّ به جوانبها ولا نعيما يصفو معه كدرها ، فحياته كانت كما قال الله سبحانه : « موج ، من فوقه موج ، من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض » ، وعيش كدر كهذا يَكِل المرء إلى نفسه ، ويسلمه مرغماً إلى ما تتمخض عنه الأيام وما تجرى به الليالى ، ومصير الإنسان فى هذا واضح مرسوم ، فهو لا يعدو استقبال الخطوب فوجاً بعد فوج وتلقّيها قَبيلاً إِثْرَ قبيل ، فإذا

www.alkottob.com
www.library-arab.com/vb

أفاق المرء قليلا فى هذا إلى وجوده ، واستطاع أن يختلس من الآلام برهة يسطّر فيها ما يمر به من هـول وفزع .. قدّم لمن هم فى نَجْوَةٍ عن هـذا لوناً فريداً من الألوان التى لم تتفتح عليها أنظارهم ولم تطُف حـول أعاصيرها أوهامُهم ، فإذا كان شاعراً عبقرياً موهوباً كصاحبنا الذى أذكت الأحزان موهبته وأرهفت الآلام مشاعره .. فإنه ولا ريب سيسوق فى هذا الباب كل رائع من القول وجليل من البيان .

إن الفن الحزين الذى عُرِف به الديب ما هو إلا آهات صارخة من ضربات محكمة ، تُسدد إليه فتذهب بآماله وتطفىء من روحه شعلة الطموح وتميت على شفتيه ابتسامة الأمل والرجاء .

والديب فيما نقرأ له من روائع فنه مُلْهمٌ قد صنعته المحنة ، وعبقرىٌّ صهرت روحه الآلام ، ولست أراه فى ذلك إلاَّ كَنَبْتِ الصحراء تضرب جذوره فى التربة القاحلة ، ثم لا تزال هذه الجذور تضرب . . وتضرب فى أغوار الأرض حتى تجد غذاءها الذى لم تجده على السطح ، وحينئذ يشتد الجذع وَيَقْوَى .. ثم يُورق ويُزهر . . ولا يزال كذلك يانعا متجدد الحياة متعاقب الإزهار لا تنال منـه عواصف الصحراء الهُوج ولا يُذْبِل عوده لفحُ الهجير .

فهذا هو الديب لمن شاء أن يعرفه .. وهذا هو الفقير الذى لم يتّكِىء فى فنه على غير ما تمده به طبيعته الحزينة .

* * *

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

وإن نفسا مضطربة كنفس الشاعر تُلْتمس لها المعذرة حين ترسم « جزءا » من صورة تحسها ، ثم تُمْسِكُ عنها إلى حين .. حتى إذا أحست هذه النفس شعورا مماثلا لشعورها الأول عادت إلى « جزء الصورة » الذى كانت قد رسمت ، لتكمل الصورة التى تروق لشاعر يتحدث إلى نفسه عن نفسه ، لأنه يعيش فى الآلام وحده لا يشركه فيها أحد ؛ ومن العجيب أن نسعد بما صنع الديب من أحزانه وإن كنّا لا نألم لألمه إلا فى النادر القليل .

وكنت قد حفظت للديب أبياتا أثبتها فى موضعها ، وما كنت أعلم أنها كانت صورة ناقصة أو جزءا من الصورة عاد الشاعر إليها فيما بعد فصنع منها شيئا آخر .. حتى لقيت الرواية الصديق محمد النجار ، ولقيت كذلك ربيب الشاعر الأستاذ محمد سالم ، وقد تفضّلاَ فرويا لى ما كان الديب قد أضافه إلى الأبيات بعد زواجه ، وأنا إذ أسوقها للقراء أشكر للسيدين أن علّمانى شيئا ما كنت أعلمه من فن الصديق :

مَنْ زائرى بالعيد ؟ مَن بالباب ، وهمٌ فقدت به رشيد صوابى
من ذا يطالع سحنة مغبرة فكأنّها لُعنت بكل كتاب
ياغرفتى ما عشت أحْبُوكِ الرضا فلقد حجبتِ عن الورى أوصابى
فَعَلَى ثراكِ عَفَرْتُ جسمى نائما كَثَرَى البقيع لعابدٍ أوّاب
ووقيتِنِى فى مدمعى وشكايتى أُذْنَ اللئيم ونظرة المُرتاب

www.alkottob.com
www.library-arab.com/vb

جَنَّ الظلام .. وقد توَارَى عِيدُهم ... وَذَوَى رُوَاء البشر والترحاب
فخرجتُ بعد العيد أُخْفِي شقوتى ... متظاهرا بالزهو والإعجــاب
مَا آذَنِي إلاَّ بكاء حَلِيلَتِي ... حزنا لبؤس شبابها وشبابى
تَرنُو إلى جيراننا فى يُسْرِهِم ... رنو الْيَبَابِ إلَى هَمِيلِ سحاب
وَهِيَ الصَّبُورُ إِذَا عَرَتْنَا محنة ... لَمْ يَدْرِ غيرى مَا يُخَبِّئُ بَابِى
وإذا انتصرنا فى حروب مُرَّةٍ ... فى عيشنا .. عَفَّتْ عن الأسلاب
والناس مهما أُسعدوا فى عيدهم ... صَرْعَى خِرَافٍ .. فِى سُعَارِ ذئاب
ولو أنهم وصلوا الفقير بعيدهم ... من رزقهم لنجوا من الأوصاب
أَنَا جالسٌ فى موكب حلقاته ... ضَمَّتْ أعز وجاهة وجَنَاب
مِنْ كل مَزْحُومِ الطرائق للغنى ... أَوْ وَالِغٍ فى الجاه والألقاب
أَوْ مُدَّعٍ أَنَّ النبوة أصله ... مُتطاولا بوجاهة الأنساب
فَتَشَتْ رجولتهم وُجوهُ خَصَاصتى ... فرأتْ بها وِردًا لكل سَراب
قد زَوَّروا هيباتهم .. وتفننوا ... فى « كرنفال » البأس والإرهاب

* * *

ويطيب لى هنا أن أنقل للقراء صورة للأدب الذى يَمتهن فن الديب ويستهجنه ، فقد جلست يوما إلى شاب قيل لى : إن له وزنه فى عالم الأدب « المتحرر » ، والأدباء المتحررون أو الكتاب الذين يفكرون بعقول غيرهم ويكتبون بأناملَ غير أناملهم يكثرون

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

فى هذا البلد . . ! ! ، فالحمد لله على ضَرَّائه فإنه لا يُحْمَدُ على مكروه سواه .

لقيتُ هذا الأديب الدعىّ فى صحبة أصدقاء ذواقين من أولى النظر والمعرفة ، وكنت أعرف فيهم إلى جانب رجاحة عقولهم أنهم ساخرون حينا وفكِهُون أحيانا ، فلقد يستملحون الحديث إلى متعالم يجهل نفسه . . ! ، وقد يمتدحون — فى بصر وحذاقة — رأيا مُبْتَسَرا يراه ساذج لا يكاد يرى أرنبة أنفه من أولئك الذين يجهلون الكتابة باللغة الفصحى ويعجزون عن التعبير بأساليبها الرصينة ؛ ولأنه لا بدَّ لهذا النوع من الكتاب أن يعيش ، نراه « يُفَلْسِفُ » جهله باللغة والكتابة على النحو الذى يستطيع . . ! ، فالشعر فى رأيه تحرر وانطلاق . . ! ، والكتابة لديه عاميّة مَرة وتقدمية مرة أخرى ، وتلك — كما ترى — ألفاظ فضفاضة لا يفهم مدلولها رجل يحترم عقله من أمثالنا المحافظين «الرجعيين» . . ! ! .

وحين وصلوا بينى وبين هذا الأديب المجدِّد « عفا الله عنه » ، رأيته — على غير ارتقاب — يضع ساقا على ساق ، ويتكلف الذهول الذى لم تهب له الطبيعة شيئا سواه ، ليقول لى : « وإذن فأنت الذى كتبت عن عبد الحميد الديب فى صحيفة الشعب » ، فقلت : « نعم ، وأرجو أن يكون ذلك فى موضع رضاك » ، فمضغ كلمات فى فمه لم أستبن منها شيئا ، ثم اعتدل منصرفا عنى إلى المتسلين به من الأصدقاء ،

www.alkottob.com
www.library-arab.com/vb

وكانوا قد عرفوا من أمره مالم أكن أعرف ، فزَمَّ ظريفٌ من هؤلاء شفتيه تأففا واستنكارا ، وهزَّ آخر رأسه فى أسف مصطنع وتعجب مريب ، ففهمتُ كلَّ شىء .. وهيئت نفسى لمرح غير مرتقب وأعددتها لمسرة ما كان أحوجنى إليها .. ! .

ووصلت الحديث فى هذا الجو الساخر ، فسألته فيما يشبه التهيُّب من جلال قدره : « وهل لى أن أفهم أن سيدى غير راض عن الأدب الواقعى الذى اتَّسم به فن الديب ؟ » فسبقه إلى الجواب متخابث أريب وقال : « أنت ياسيد عبد الرحمن لم تفهم بعد رسالة أديبنا الذى تجلس إليه وتتشرف بالحديث معه ، فهو صاحب مذهب له خطره فى دنيا الأدب المعاصر ، أو هو امتداد لعصر «جان جاك رسو ، ومكسيم جوركى» ، فقلت وإذن فالأديب الكبير يجيد — ولا شك — اللغة الفرنسية والروسية ، وهنا أجاب الكاتب المجدد بأنه أجاد الفرنسية فى أشهر ، وهو بصدد إجادة الروسية ، فتحدثت إليه — بإيحاء من الجالسين — بالفرنسية ، وأشهد أننى وجدته فيها مجدداً متحررا على نحو طريقته فى الأدب والكتابة ، فهو يصنع جملها كما يشاء وإن كرهت اللغة ، ويودع فى أساليبها نوعاً فريداً من الإنطلاق لم تعهده الفرنسية ولم يفطن إليه القوم حين وضعوا لها القواعد والأصول .. ! ، ثم قلت له : « ألا يعجبك جانب واحد من جوانب الأدب الديبى ؟ ، فأجاب كمن

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

يلقى علىّ درسا فى نظرية علمية معقدة : « أظنك لم تفهمنى بعد . . ! ، فإن مذهبى الذى جندت له مواهبى ووقفت عليه حياتى يتجه بالعقول إلى مطالع النور ، ويدفع الشباب بكلتا يديه إلى مشارف القوة والمجد ، إنه التجاوب مع رجل الشارع ولا شىء أكثر من هذا ، فأنت ترى أننى أُنْشِىء وأخلُق ، والديب يبكى ويضرع ، وشتان مابين المذهبين » ، فقلت : ولماذا لم تفترض أن الديب رجل من رجال الشارع فهو على كل حال واحد من رعيتك بهذا الاعتبار ، فَهَلاَّ تجاوبت معه بدراسة شعره كدأبك فى تجاوبك مع الدهماء والسوقة ؟ ! ، فقال : لأن الديب لم يقرأ أدبا غربيا كما قرأت ، فلهذا جاء أدبه جافا يجرى على النهج الذى رسمه امرؤ القيس فى قريضه ، واحتذاه المتنبى فى شعره ، ولو أنه أرسل نفسه على سجيتها وتحرر من قيد الوزن والقافية فى شعره ، لاستطاع أن يدخل إلى عالمنا المتحرر ولو من النافذة ..!! » .

ولو أن الديب بُعِثَ من رقدته لما شهد أطرف مما شهدنا ، فلقد مرت عليه فى حياته صور كثيرة من هذا النوع ، ولكنها لم تكن تحمل ـ على طرافتها ـ مثل هذا الغرور المضحك والجهل العبقرى ، والحق أنها نَكْسَةٌ أُصيب بها هذا الجيل ، ولن أزيد فى وصفها بأكثر من أنها « وَبَاء » عقلى تَفَشَّى فى طبقةٍ لم تفهم الأدب العربى على النحو الذى ينبغى أن يُفهم ، وداء فتك بأخيلةٍ مكدودة قَعَدَ

بها عن الكمال ، ولأنه ليس فى طاقة هذه الأخيلة المريضة أن تُحَلِّق فى آفاق الشرق المشرقة ، رَاحَت تتخبط كمن به مسٌّ من الجن فى الآفاق الملبَّدَةِ بالسحب والمُغَشَّاةِ من كل جوانبها بالظلمة والقتام ..!!.

وقد شاء المجدد الْوَرِم أن يسوق إلينا لوناً من إبداعه وخَلْقِه ، فمسح على شَعره المنفوش براحتيه ، والشعر المنفوش فى مذهب هؤلاء أمارة الزعامة الأدبية وَسِمَة المجددين فى عالم الفنون !! ، ثم جلس جلسة المفكرين الذين يصنعون التاريخ وَيُرْسُونَ قواعد الفكر الحديث ، وبدأ ينشدنا هَذَيانًا محموماً سماه شعراً . . قال حفظه الله ورعاه للأدب والفن :

« يا شباب الجيلْ . . افتحوا عيونكم جَيِّداً للنُّورْ ،

وَيَاحُمَاةَ النيلْ . . اغسلوا كَسَلَكُمْ بمائه الرَّقْرَاقْ . . فقد دَنَتِ الساعة ياشباب الجيلْ » .

« دَقَّتِ الطبول يا حماة النيلْ ! ! ،

وكان الجو ثقيلا كالرصاصْ . . ملأ عيوننا « بالعُماصْ » ! ! ،

وَضَعُفْنَا أمام الإستعمار . . وأضلنا البغْيُ عن السبيل ! !

واليوم دنت الساعة يا شباب الجيلْ ،

www.alkottob.com

واليوم . . دقت الطبول يا حماة النيلْ . . ! ! » .

* * *

« تَسَلَّقْ أيها الشباب قمم الجبال المُغَطَّاةِ بالثلوجْ . . ! ! ،

وَسِرْ إلى الأمام فى الضَّبَابِ الكثيفْ . . ! ! ،

فإنَّ زهرة « اللُّوتْس ! ! » الجميلة تبتسم لنا من بعيدْ ،

وتدفعُ بنا ياشباب الجيل إلى العالم الجديد . . ! ! ،

فَهَيَّا ياشباب الجيل . . إلى الطفرة بوادى النيل ،

يا شباب الجيل . . ويا حماة النيل » .

* * *

وما إن انتهى المسكين من هذيانه العجيب حتى تواثبنا حوله فى حماس نستزيده إنشاداً ، ونلتمس منه إعادة ، والمسكين يكاد يخرج من إهابه زهوا وخيلاء . . ! ! ، والمؤلم فى هذا ، أن ذلك الأدب الْغَثّ قد أصبحت له « مدرسة » فى الشرق العربى يقرأ هذيانها كل يوم آلاف وآلاف ، فى الصحف ، وفى الكتب . وفيما إليهما من وسائل النشر والتثقيف . . ! ! .

ومن أجل الديب عرضت لهؤلاء الأعياء المنتفخين ، ومن أجله

www.alkottob.com
www.library-arab.com/vb

وحده ترسلت فيما يتنادون به من « صعود هابط » بالبيان العربى ، وتناولت ما يبشرون به من إسفاف فى التعبير وتمرد على حُر الأساليب التى لم تتمرس بها طبائعهم ولم تنطبع عليها ألسنتهم العابثة .

ولقد كان عبد الحميد الديب ضحية من ضحايا هؤلاء الذين سدوا عليه آفاق الرزق الحلال ، فى الصحافة وفى التدريس وفى كل مكان يقصده . . ! ، فحيثما كان الديب ، تساقطوا عليه وَطَنُّوا حول أدبه كما يتساقط الذباب الذى يحمل فى أجنحته الجراثيم الفتاكة على العسل الطيب الشهى . . فيصيبون من جَنَاهُ ما شاء الله لهم أن يصيبوا ، ثم يصيبون الديب بما يحملون من كدر نفوسهم وفاتك أحقادهم ، حتى إذا حفظوا عنه فكاهة أو اختلسوا منه قصيدة طاروا بها إلى مجالس أخرى يَرْوُونَها وكأنها من خفة أرواحهم أو من وحى أخيلتهم وصنع إلهامهم . . ! ! .

وهكذا نفهم بعض السر فى اختفاء شعر الديب حتى الآن ، فإن كل من « يحتكر » أبياتاً منه يبالغ فى إخفائها ويستميت فى الحرص عليها ، فلربما تدفعه الحاجة يوماً أن يكتب لصحيفة لقاء أجر يصيبه ، فإذا استحث عقله على التفكير فيما يكتب وجد فيه فراغاً رهيباً ، وإذا استلهم قريحته ألفاها تتثاءب كسلا وبلادة ، فإذا ذكر

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

مالديه من شعر الديب وجد المقال الذى يروم مسطوراً فى معانيها ، والمال الذى يريد يُطِلُّ من قوافيها الدامعة حرماناً وجوعاً . . ! ! .

وقد كتب إلىّ الراوية محمد النجار كتاباً يشير فيه إلى هذا المعنى ، فلقد جمع من شعر صديقه عبد الحميد قرابة مائتى قصيدة ، ثم دفع بها عام ١٩٤٤ إلى من وثق به لتكون نواة لنشر الديوان ، وكان أن ابتلعت لعنة الديب هذا الشعر الكثير ، فلم يظهر له أثر ولا سمع الناس عنه شيئاً . . ! ، واليوم أتوجه برجاء حار إلى الأديب « المحتكر » أن يرد الأمانة ، أو يفى بالوعد ، فلعلنا نفرغ سريعاً من إعداد هذا الديوان الذى يرتقبه الأدباء فى كل مكان ، ولعلنا بذلك نرحم الديب ونسعده فى رقدته فإنه هو القائل من قصيدة مَرَّ ذكرها :

أيهنيك أن أبكى وعيشك يبسم ويرضيك تبريحى وأنت منعم !!

* * *

وخيال عبد الحميد الديب هو الخيال الذى نسق لنا تلك الزهرات العبقة وقدمها إلينا تنفح عطراً مسكراً وتميس بالشذى الحالم ، على أنه زفّها إلينا بِكْراً لم تمس ، وقطفها من أجلنا كما هى بأشواكها وبداوتها من واحات أحزانه ومآسيه :

رَفَعْنَا حجاب الشمس . . أَيْنَ سناها؟ وَدِنَّا رياض الخلد . . أين شَذاها!!

تَجَافَتْ بنا الدنيا ونحن سَرَاتُها وضاقت علينا أرضها وسماها

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

ومن يُزْم بالدنيا الفقيرة فليكن على الرغم منه . أُمّها وأباها
تحطمتُ بالحرمان . . لولا علالة تمرَّغَ فقرى فى وَضِيعِ ثَرَاها
أُنافِقُ فيها مُكْرَهًا لخصاصتى وأَبْذُل نفسى أن أنال حيَاها
واستشفع الْقَدَمَ الضعيف بمحنة بها فاض هَمِّى يائساً وتناهى

ويَلَذُّ للديب أحياناً أن يدل على الأقران بمواهبه ، وأن يستعلى على النظراء بعبقريته ، وهو فى هذا لم يكن كبعض المتشاعرين فى عصرنا يفخر بما ليس فيه طبعه أو يترنم بغير لحنه ، وإنما هو فاخر بما قد يفخر به الموهوبون ، وَمُدِلٌّ بعبقرية لا يستطيع إنكارها عليه أحد أو يستريب فى أصالتها أديب .

ولكننا نجده فى بعض أحواله يُسرف فى تقدير شعره إسرافاً قد يميل به عن القصد ويخرج به عن الجادة ! ! ، وحجته فى ذلك أن الأدعياء من المتشاعرين قد انتحلوا لأنفسهم ماليس لهم ، وانتفخوا عَلَى مَنْ سواهم بهزيل من القريض وَغُثَاء من النظم المَمْجُوج . . على أن المبالغة لم تجر كثيراً فى شعر الديب ، بل ولم يردد لسانه تلك الدعاوى العريضة فى هذا الباب إلا فى النادر القليل ،فإذا سمع من هؤلاء المتطفلين على دولة القريض ما يغيظه أو يحنقه، تعمد أن يغيظهم بالمبالغة التى تَندِّ عن طبعه ، وأن يُحنقهم بأن يجعل من سمائهم أرضاً لخياله ، ومن هنا طاب له أن يُسرف على نفسه وأن يمعن فى الإسراف

www.alkottob.com

حين يقول :

وَشِدْتُ كما شاد النَّبِيُّون شرعة   تنزل فيها الوحى شعراً مردداً !

وحين يقول :

بين النجوم أُنَاسٌ قد رفعتهموا   إلى السماء فسدوا باب أرزاقى !!

وحين يقول :

وأنا الذى لَبِسَ النجوم قلائداً   وزَكَا غُدُوِّى فى العلاورواحى!!

و إذ يقول :

أنبتُّ فى الأخلاق صدق « محمد »

وَجَنَيْتُ كذب «مُسَيْلِمٍ وَسَجَاح » !

* * *

ونستطيع أن نجد تعاليل عزوفه عن المبالغة المستكرهة فى شعره بالرجوع إلى الثقافة التى أُتِيحَتْ له فصدر عنها فنه الذى عرضنا جانباً منه ، فلقد حفظ الديب أول ماحفظ فى طفولته القرآن الكريم ،فانطبعت أساليبه الرائعة فى نفسه ، واستقام يُسْرُهُ فى قلبه ، فعرف كيف يُبْرِزُ المعنى فى لفظٍ أنيق ، وكيف يسلك إليه سبيل القصد والاعتدال .

فلقد كان فى حداثته رقيق البيان عذب العبارة ، يعرض ما بنفسه

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

فى وضوح وتمكُّن ، فإذا تحدث مرتجلا فكأنما يقرأ من كتاب أو يتلو نصًّا كان قد حفظه ووعاه ..!!.

وهذا النبوغ المبكِّر هو الذى أثار عجب الأستاذ الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الأزهر السابق ، فقد حدثنى حين قرأ طرفاً مما أكتب عن الشاعر ، أنه عرف الديب طالباً ذكياً مستقيما يتلقى العلم معه فى معهد الإسكندرية ، وكان معجباً بذكائه وحسن عرضه حين يطلب منه الأستاذ أن يلقى درساً على زملائه كما كان متبعاً حينذاك فى دراسة الأزهر .

وشهادة كهذه للشاعر أمر له وزنه عند كل من يعرض لتاريخ الديب أو يكتب عنه ، لأنها تلقى ضوءاً على ماضيه الذى جهله أو تجاهله كثير من الناس !.

* * *

بَيَّنَّا أن بلاغة القرآن ونهجه العالى قد أثَّرَا فى شعر الديب تأثيراً قوياً وخلعا عليه لوناً لا يمكن أن يجحد،ولهذا جاء شعره مستقيما لا عوج فيه ، وظهر أمام أعيننا صادق الأداء فى غير تهويل أو اضطراب ، إنك تلمس ذلك حين تقرأ للديب أبياتاً متفرقة يظهر فيها الأثرالقرآنى ظهوراً لا يحتاج إلى تنويه ولا يفتقر إلى بيان ، فهو متأثر بقوله تعالى :

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

« تلك إذن قسمة ضِيزَى » فى قوله :

ضَلَّتِ الأقدار تقسيم النِّعَمْ   قِسْمَةٌ ضِيزَى، وأُخرى عن كَرَمْ
كيف يُعطَى الراحة الكبرى صنم   و يذوق البؤس حُرٌّ عالمُ ؟

وهو مُتَلَفِّتٌ إلى الآية الكريمة « وغلّقت الأبواب وقالت هَيْتَ لَكْ » فى قوله :

هِجْتُهَا شوقاً ، فقالت : هَيْتَ لَكْ   والهوى يُغرى على الفسق المَلَكْ
ارحم المسفوك والْعن من سَفَكْ   « لستُ مظلوما ، فإنى ظالمُ »

وفى قصيدته التى يقول فيها :

فكم مُعْوِزٍ قد كساه الإباءُ   حصانة ذى القُدَرِ الغاليات

ناظر إلى قوله تعالى « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » :

ولعلك تلمس كذلك الأثر البارز فى شعره لدراسته الفقه الإسلامى وعلوم الدين حينما كان طالباً فى الأزهر ، فهو متأثر « بالفرض والنفل » ، حين يقول :

رضيتُ، ومن يمرن على حزنه يرضى   فياظل أحلام تقلَّص وانفضا
و ياسامر الدنيا وموكب يسرها
تَجَافَيْتَ بى نَفْلاً ، وأنكرتنى فرضا

وحين يقول :

وهل أَنَا حَىٌّ .. أَمْ قَضَيْتُ .. وهذه
إِهَابَةُ إِسْرَافِيلَ تبعثنى وَحْدى

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

والديب ينظم المعنى القرآنى حين يقول :

لقد كنتُ فيهم يوسف السجنِ صالحاً
أُفَسِّرُ أحْـلاَماً لهم وأصيب

وإذ يقول فى شأن اليهود :

قَضَتِ السّماء بأن يُشَرَّدَ شعبهم ويعـد بين طوائف الفجار

* * *

ولما تحول إلى مدرسة دار العلوم حفظ بها كثيراً من جيد الشعر والنثر ، وأخذ يدرس المعلقات دارسة وافية مستفيضة ، وكان قد حفظها ووعاها فى قلبه ، وذلك لقرب صورها الشعرية من نفسه ، ولملائمتها لطبعه وفطرته ، ولم تمسحها من ذاكرته الأحداث المتعاقبة التى مرت به ، وما غاب عن خاطره منها حرف أو نَدَّ عن وعيه معنى من معانيها الجليلة حتى وهو فى غمرة الأسى وحالك الأحزان ، بل إنه ظل ينشدها كما كان قد حفظها ، ويطرب لها كما طرب لها فى صدر شبابه إلى أن وافاه أجله وطوت صفحته المنون .

وكان طبيعياً أن تظهر صورها البدوية الهائمة فى الصحراء العربية الشاسعة وتنطبع فى شعره ، فهى ظاهرة فى فن الديب ظهوراً لا يمكن لدارس شعره أن يتجاهل هذا الأثر أو يغفل عن مداه ، فلقد طبعت أسلوبه بطابع القوة والرصانة ، ونأت به عن المبالغة المرذولة والأسلوب

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb

المتكلف ، فهو لهذا شاعر عربى مطبوع لا تكاد ترى فى قريضة ليونة الحضر وطراوة المدينة ، وإن تكن الدماثة من أخص صفاته والرقة من أبرز مقوماته .

فمطلع قصيدته التى وصف بها كرة القدم خير شاهد على ماقدمنا ، قال :

خليليّ عوجا نلتمس لقلوبنا من الهم سلوى ، لا أبا لأبيكما

ويقول فى مطلع قصيدة له :

مَن عمرو ذو كرب ؟وزيد إياد ؟ ورفيق عبلة فارس الأجناد ؟ !

والذى نستطيع أن نؤكده أن الديب لم تكن له ثقافة إلا من هذين النَّبْعَيْن : من القرآن ومن المعلقات وأطراف من شعر العرب ، فإن آلامه المتصله لم تتح له أن ينهل من نبع الثقافة الحديثة أو القديمة إلا بمقدار ماذكرنا .

وإذن فالديب موهوب يغترف فنه من المعين الذى يتفجر من أحاسيسه الخاصة ، وملهم يَلْقَفُ إلهامه مما يتزاحم فى وجدانه من حشود البيان وبارع السحر ، وما أدرى كيف يكون فنه لو أن الحياة اطمأنت به وهيأت له أن يقبل على الثقافات المختلفة يملأ منها قلبه ويفعم بها نفسه ؟ ، والذى أظنه فى هذا أن الديب لو قرأ وتثقف لَسَامَتَ كثيراً

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

من الشعراء ، ولصافح براحته سماء الفُحُول ، ولـكن الديب جاء هكذا فلا نجهد أنفسنا بافتراضات قد لا تفضى إلى نتائج مسلمة من جميع الأدباء ورواد الفنون .

وحسبى أَنْ أدع الديب الملهم الفقير ينشدنا :

رضيتُ ومن يمرن على حزنه يرضى ... فياظل أحلام تقلص وانفضَّا
ويا سامر الدنيا وموكب يُسرها ... تجافيتَ بى نفلا وأنـكرتنى فرضا
كأَنِّيَ بين الناس لعنه جيلهم ... فَمَنْ شِمتُ منه العيش أَوسعنى رفضا
ويحتال .. حتى ما يُفرِّجَ كُربتى ... إذَا عَيَّ بى كُلاَّ .. يُجرِّجُنِي بعضا
وقدمت نفسى للبلاد بخطبها ... فداء ، فَسَامَتْنِي نواظرها غَمْضَا !!
أَحَتَّى إِذَا قدمتُ مستكرما دمى ... لشعبى أُسَامُ البُغْضَ منه فلا يرضى ؟!
يعدونه منى انتحـاراً لفاقتى ... وَلَسْنَا ضحايا البؤس مثلهمو مَرْضَى
أَيَمْلأُ هذا الشعب حبى ورحمتى ... وَيَفجعنى فى كل مضطرب بغضا
أريد سماء بالجهاد تُعِزُّنِي ... وشعبى يَأْبَى أَنْ يُبَوِّأَنى أرضا ؟!!
أحولى هذا الرعد والبرق وامضا ... وتَخْبُو حياتى لاأَشِيمُ بهاوَمْضَا !!
لقد جَنَّدتنى الحادثات لحربها ... فأىّ حقوق للبلاد بها تُقْضَى ؟ !
قضاء بإعدامى غداة شبيبتى ... عَجَزْتُ ..فلم أَمْلِكْ لضربته نقضا
أريد انتظامى بين أَجْنَادِ أُمَّتِي ... أقدم قربانا شبابى لهـا غضا

www.alkottob.com

ولـكنّ عجزى عن كفافى يَؤُدُونِى فَلَمْ أَدْرِ طولاً للجهاد ولا عرضا
لئن كان عزمى ماضيا فنَوَائِبى إِذَا عَصَفَتْ بالعزم ظافرة أَمْضَى

وبعد ؛ فهذا هو عبد الحميد الديب كما هدتنى إليه مُخالطة طويلة ، وما أظننى ظلمته حين سميته « الشاعر البائس » ، لأن البؤس كان ينبع من نفسه ويرتسم على تجاعيد وجهه ، وعلى كل حال فإنى استغفر الله سبحانه إن كنت من الظَّالمين .

www.alkottob.com
www.library4arab.com/vb

منتديات مكتبة العرب

http://library4arab.com/vb

www.alkottob.com

www.library4arab.com/vb

موضـــوعات الكتاب

صفحة

عبد الحميد الديب : بقلم أستاذنا الكبير أحمد حسن الزيات ا

مقدمة للمؤلف ١

الفصل الأول : نشأته وأثرها فى شخصيته وفنه ١١

الفصل الثانى : بدء المحنة وآثارها ٣٩

الفصل الثالث: الديب مع مشاكله وفى ليالى العيد ٥٩

الفصل الرابع : الثائر الحاقد ٧٩

الفصل الخامس: مع الديب متفكهاً وهاجيا ١٠٩

الفصل السادس: الشاعر الأجير ١٣١

الفصل السابع: الزواج وكراء البيت ١٥٩

الفصل الثامن : الديب موظفا ١٧٥

الفصل التاسع : هذا هو الديب فلا تظلموه ١٨٣

www.alkottob.com

www.library4arab.com/vb

www.alkottob.com
www.libraray4arab.com/vb